الاعتزاز بالعربية أساس في تشكيل شخصية الفرد

الدكتورة إيمان محمد أمين خضر الكيلاني
أستاذة اللسانيات الحديثة
الجامعة الهاشمية
المملكة الأردنية الهاشمية

الثلاثاء 6 محرم 1434هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2012م

مقدمة

ثمة حقيقتان متبادلتان هما أن اللغة سلوك، وأن هدفها خلق سلوك، وهي بما تحويه من قيم ومبادئ وحكمة وفلسفة أساس في خلق التفكير لدى الفرد، وهي التي تصوغ تفكيره ورؤاه وشخصيته، وبالمقابل يكون الفرد الذي هو نتاج المجتمع المثل والقدوة التي تملك التغيير والتأثير في شخصية أفراد آخرين، إذ اللغة وإن كانت المخزون الجمعي لممارسة أبناء المجتمع لملكة اللسان، والكلام هو الحدث المادي الحقيقي الذي يمتلكه الفرد من اللغة، وإن بدا الاثنان متقابلين لدى دي سوسير إلا أن الحقيقة أن هذا التقابل هو تقابل تكامل لا تناقض وتنافر.

والفرد يكتسب اللغة لا محض أصوات للتواصل الضروري للبقاء فحسب، بل يكتسبها بما ترمز إليه من مدلولات، فاللغة والفكر وجهان لعملة واحدة، وقد دلت الدراسات التربوية والنفسية على أن نمو اللغة يساوقه نمو في التفكير والارتقاء العقلي، فإذا أحسن المجتمع أداء رسالته اللغوية وحرص على تلقين أبنائه النماذج العليا، وذلك وفق منهج علمي يعتمد التخطيط أساساً في تشكيل هويتهم – ضمن أفرادا مميزين واستطاع بذلك أن يوجد مجتمعاً يحمل قيماً وأفكارا من شأنها أن تدفعه وترفعه إلى القمة بين المجتمعات الإنسانية وتجعله جديراّ بخلافة الأرض.

يعالج هذا البحث جدلية العلاقة بين اللغة والفرد، واللغة والفكر، ويشير من خلال استقراء الواقع اللغوي للأمة أن أهم تحريف في لسانها ينصب في معظمه على الانحرافات الصوتية مما يخلق فجوة بين المستوى العامي والمستوى الفصيح، ويرى أن لابد من السعي لردم هذه الفجوة؛ وذلك بإحياء كل أصوات الفصيحة وفق خطة عملية في الحياة العامة، كما يقترح خطوات إجرائية لإيجاد جيل عربي أصيل يعتز بهويته وثقافته ابتداء من أصغر نواة فيه وهو الفرد.

أهمية الدراسات اللغوية والتخطيط اللغوي

إن موضوع هذا البحث ينضوي تحت ما يسمى باللسانيات التطبيقية، (Applied Linguistics) وإذا كانت اللسانيات عموماً علماً نظرياً، فإن الغاية المثلى من تعلّم وتعليم أي علم هي استكشاف الثوابت والحقائق الأساسية فيه؛ ليتحول بعد تأصيله إلى مرحلة التطبيق العملي بالإفادة منه في الواقع الحياتي بما ينعكس على الفرد والمجتمع، فالتطبيق هو خلاصة العلوم النظرية.

وعليه، فإن اللسانيات التطبيقية تضطلع بمهمة تحويل المعرفة اللغوية، سواء بتحديد طبيعة اللغة، أو مناهج تحليلها إلى تطبيق عملي تؤديه جارحة اللسان، فحصاد المعرفة اللسانية يؤدي إلى تحصيل المعرفة اللغوية التي تؤدي إلى تنظيم التفكير اللغوي وتهذيب اللسان فإطلاقه باللغة المتعلمة، فاللسانيات التطبيقية معنية باستثمار المفاهيم اللسانية بتحويل التنظير إلى تطبيق نفعي.

"إذن فهذا العلم جسر يربط قنوات علمية متنوعة، وهو علم ذو أنظمة متعددة، تستثمر نتائجها (الأنظمة) في تحديد المشكلات اللغوية ووضع الحلول المناسبة لها، وعلى الرغم من أن اللسانيات النظرية ليست العنصر الوحيد في هذه التوليفة، فإنها تبقى أهم عنصر فيها"[1].

فهي تفيد من اللسانيات النظرية بفروعها المتنوعة: النفسية، والاجتماعية والتربوية، والصوتية، والدلالية بفرعيها الرئيسين: المعجمية والسياقية، أسلوبياً وبراغماتياً، وغيرها .

---

١. العناتي، وليد، اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، الجوهرة للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 1424هـ 2003م، ص17. وانظر: الراجحي، عبده، علم اللغة التطبيقي وتعليم اللغة العربية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1992م، ص 11، 12.

و"اللسانيات التطبيقية تضم العلوم التي تطبق الدرس اللساني النظري، كتعليم اللغات القومية والأجنبية، وصناعة المعاجم، والترجمة، وأمراض الكلام، ومختبرات اللغة[١]".

فكلمة "تطبيقي" توحي بـ"أن هذا العلم لا يسعى إلى دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وإنما يسعى إلى أهداف عملية نفعية، شأنه في ذلك شأن جميع العلوم التطبيقية التي تتوجه إلى أهداف خارج الحدود الحقيقية للعلوم، ..."[٢].

وينصب الاهتمام في هذا البحث على تعليم العربية لأبنائها [٣]، وكأي علم تطبيقي لا بد أن يعمد المتخصصون به إلى رسم حدوده، وأساسياته، وتحديد أهدافه، وأبجدياته، ومشاكله، وحلولها، وذلك بالتخطيط له بدقة ووعي واقتدار.

ولعله من التعسف بمكان تقسيم العلوم إلى نظرية وتطبيقية، واحتساب العلوم الإنسانية بما فيها من علوم اللغة نظرية، وينظر إليها على أنها درجة ثانية. وحقيقة الأمر أنه لولا اللغة ما كان الفكر، ولولا الفكر ما قامت الحضارة، ومن هنا عدّ أجدادنا العلوم الشرعية أشرف العلوم لأنها نقلية لا عقلية، وعدّوا علم اللسان أولها [٤]، والطريف أن هذه الفكرة انتقلت إلى الغرب كما انتقل فكر ابن خلدون كاملاً فقام علم الاجتماع عندهم على ما جاء عنده، وتغيرت نظرة الغرب إلى اللغات وإلى العلوم الإنسانية وتنبهوا بناءً على ذلك إلى دورها في صياغة شخصية

---

١. قدّور، أحمد، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط 1، 1416-1996م، ص27.

٢. دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص73.

٣. لمزيد من التفصيل في العلاقة بين اللسانيات وتعليم اللغات، انظر: اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ص171.

٤. انظر:ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ت: عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، ج5، الفصل6، 4، ص191.

الإنسان فالمجتمع، وبدأ مع عصر التنوير إيلاء هذه العلوم أهمية خاصة، فهي مفتاح العلوم الأخرى، وهي التي تعمل على تعبئة الشعوب وصقل شخصية الإنسان وتوجيهه، قرأت في أحد ملفات المخابرات البريطانية على لسان عميل سري لهم سمى نفسه محمداً وادعى أنه من أصفهان، وكان يتجسس على الدولة العثمانية قبل سقوطها بمائة سنة تقريباً، أوجد مذهباً دينياً في المنطقة لتنفيذ أفكار ومعتقدات معينة، وكان من ضمن ما ذكر أنه كان لديهم في دائرتهم بلندن غرفة واسعة مصممة على شكل بيت الخلافة وفيها أشخاص يشبهون ويلبسون ثياب الشخصيات ابتداء من الخليفة وانتهاء بالحاجب، فإذا أرادت بريطانيا تطبيق سياسة ما أو طرح فكرة ما أرسلت مبعوثها إلى هذه الفرقة فألقاها عليهم فتقمص كل منهم الشخصية التي يمثلها، ثم ترك كل يتصرف ويظهر ردة الفعل المتوقعة لحصر الردود والإجابات، كما ذكر الجاسوس نفسه في ملفه ذلك أنه كان من الإيجابيات في الثقافة الإسلامية أن العلوم الشرعية بما فيها اللغوية والتاريخية هي أشرف العلوم، وأنه ينبغي أن تحول إلى سلبية بأن تكون أدنى العلوم، وأنه ينبغي التخطيط للإكثار من المدارس والجامعات على أن لا تخرج إلا الغث والجهلة.

إن النظر في واقع الأمة اليوم يؤكد أن هذين الهدفين تحققا فعلاً كما رسم. ولا ننسى أن نشأة الاستشراق أصلاً كانت من أجل خدمة أهداف سياسية؛ لأنه لا يمكن أن تستعبد أمة إلا إذا قرأت فكرها ومعتقداتها، ولا تستطيع ذلك إلا بدراسات لغوية سابقة لتتمكن من فهم تلك الثقافات والدخول إليها من مبدأ معروف: تحويل الإيجابيات في تلك الثقافة إلى سلبيات، وتعميق السلبيات، كما نرى اليوم الثورات التي تقوم على أساس مذهبي أو عرقي، وهو مما ذكره الجاسوس –آنف الذكر– صراحة، فهي تدخل إلى الأفراد والجماعات من خلال ثغرات ثقافية، وقد ذكر صراحة أنه ينبغي العمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة، فنظرية المؤامرة

حقيقية لا وهم، فليس من شيء في هذا العالم متروكاً للصدفة، إن عالم اللغة وعالم الاجتماع وعالم النفس يحظون لدى الغرب منذ قرنين بأهمية بالغة، فالدراسات اللغوية والاجتماعية والنفسية تسبق أي هجوم على أي دولة، وذلك من خلال توجيه تلك الأمة عن طريق اللاوعي ومن خلال وسائل الإعلام المتنوعة إلى تبني قناعات تخدم أهدافها وتهيئ لها الأجواء المناسبة؛ فتضمن النصر وتحقيق الهدف، كما توجد قاعدة مضادة لأي ردة فعل تتوقع.

فمثلاً نتساءل لماذا لم تهب الأمة عندما غزا الأمريكان العراق، وكيف تمكنت من هزيمة نظام صدام مع وجود الآلة؟ ولماذا كانت الثورة في مصر سلمية فلم يتدخل الجيش؟ ولماذا مكنت أمريكا الشيعة من الحكم في بغداد على الرغم من عدائها لإيران؟ ولماذا الثورة في سوريا هي أعنف ما يمكن أن يكون؟ ولماذا لم يحظر الطيران على النظام في سوريا كما حظر في العراق؟ ولماذا لم يمت يهودي واحد في أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ ولماذا سمح لحماس بالوصول إلى السلطة ؟ وما العلاقة بين الصين والهند وروسيا من جهة والنظام في سوريا؟.....الخ

كل شيء مبرمج وإن كنا لا نقلل من شأن الثوار وإرادة الشعوب، إلا أننا نريد أن نقول بأننا ينبغي أن نكون قادرين على التخطيط المضاد، وعلى قدر من الوعي بحيث نوجه سفينة القدر باتجاه مصالحنا نحن لا مصالحِ غيرنا.

إن الرسالة اللغوية عموماً والإعلامية منها خصوصاً هي الأساس في خلق ما يجرى من أحداث حولنا وتوجيهها.

وعليه فإن الوعي باللغة والخطاب يكاد يكون فرض عين على كل فرد من هذه الأمة؛ إذ يترتب عليه مصيره، ونمط عيشه وحياته أو موته. ولعلي من أناس قلة– ربما بحدسي اللغوي– أدركت منذ استمعت إلى خطاب صدام حسين في آخر

مؤتمر عربي حضره– أن العراق ومن بعده المنطقة كاملة مقبلة على حرب عالمية ضروس، فقد كان الخطاب مختلفاً تماماً ونبرة صدام كانت مختلفة، وكان فيه جرأة غير معهودة؛ ولم نستفد من الدرس لأننا للأسف إلى هذه اللحظة لا نولي تحليل الخطاب أي أهمية حقيقية على الرغم مما يترتب عليه من مصير واستقراء لما يجري ولما سيجري.

إن حروب العالم منذ الأزل وحتى نلقى الله تقوم أصلاً على صراع ديني أو مذهبي أو سياسي، وفي المحصلة هو صراع آيدولوجي شئنا أم أبينا، لأنه صراع عقدي على نحو ما.

ومن هنا كانت اللغة أهم مكون من مكونات هوية الفرد والأمة، وعنصراً أساساً في تشكيل شخصيته، فالمرء حين يكتسب اللغة يكتسب معها ما تحويه من مضمون فاللغة ليست مجرد وعاء يمكن استبداله، ولا أصوات فحسب، إنها أصوات مشحونة بالدلالة، بل هي والفكر يتخلقان بوشائج لا يمكن فصلها، وهذا يفسر لنا محاولة تغريب اللسان لدى شباب هذه الأمة وهو ليس بالتغريب الشكلي، إنما يرافقه تغريب للجنان والإنسان، ونحن الآن أمام تحدٍ كبير وهو كيف نعرب العقل العربي وذاك لن يكون إلا بالتخطيط لتعريب سمعه وبصره، ولعل السمع أولاً مقدم على البصر في الخطاب القرآني لأنه لا يمكننا أن نتحكم به كما نتحكم ببصرنا، فهو بالضرورة محكوم بكل ما يلتقطه بغثه وسمينه.

"إن الأخذ بمبدأ التخطيط اللغوي "Language planning" في العالم العربي اليوم، قد يكون الخطوة الأولى على بداية الطريق لحل مشكلات حياتنا اللغوية، وهي مشكلات جديرة بأن تكون في مقدمة مشكلاتنا القومية والسياسية

والاجتماعية."[1] إذ بدون ذلك لا يتحرر العقل العربي فالمجتمع العربي من سطوة التغريب .

ويطلق أحياناً على التخطيط اللغوي "مصطلح الهندسة اللغوية (Engineering Language)، ويسعى هذا العلم إلى حل مشكلات الاتصال اللغوي على مستوى الدولة أو الوطن، وذلك بتقديم خطط عملية واضحة ومحددة الأهداف للتصدي للمشكلات اللغوية، واقتراح الحلول العلمية والعملية لذلك، وفق برنامج زمني محدد..."[2].

ولا بد أن يقابل التخطيط العالمي لتذويب هذه الأمة تخطيط من المخلصين من أبنائها لتثبيتها على ألسنة أبنائها وفي قلوبهم بل لإشاعتها في العالم لتكون لغة عالمية أولى.

---

١. خليل، حلمي، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1420هـ-2000م، ص13. ولمزيد من التفصيل عن حال اللسانيات التطبيقية في العالم العربي، ومجالاتها وحقولها انظر: صيني، محمد إسماعيل، اللسانيات التطبيقية في العالم العربي، ضمن "تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، وقائع ندوة جهرية، إبريل 1987 الرباط، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، يونسكو، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط1991، ص217-248.

2. دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص80.

اللغة والعقل

إن العقل الإنساني مهيّأ بالخلق ليفكر في مسألة علمية عويصة وفي الوقت نفسه قادر على أن يفكر في اللغة وسلامتها ومفرداتها وقواعدها لتسير بخط موازٍ ومتضافر مع الفكرة العلمية، وهذا ما جعل وتني يذهب إلى أن اللغة تفكير غير مباشر، وأن اللغة لفكر الإنسان كالأدوات ليديه"[1].

وهنا إنما يتحدث عن اللغة المتحصلة، لا عن اللغة في طور التحصيل، فاللغة التي يمتلكها المتكلم تصبح نشاطاً غير مباشر، بمعنى أن المرء لا يشعر بالعمليات العقلية المعقدة التي يخطوها الدماغ قبل النطق وأثناءه، فالدماغ لامتلاكه هذه المهارة المألوفة لديه يعمل ويختار وينسق ويرسل إشارات...إلخ، ليجد المتكلم نفسه يتكلم دون أن يشعر بتلك العمليات، وأما المسألة العلمية أو الفكرية كالتحليل الفيزيائي أو الكيميائي، أو غيرهما من شرح وتحليل أي مسألة علمية أو فكرية فذاك الذي يكون العقل فيه مشغولاً يفكر فيه تفكيراً مباشراً واعياً.

– أما تعلم اللغة الأجنبية فيتم من خلال التفكير المباشر؛ لأن قواعدها عند المتعلم جديدة لم يألفها الدماغ، فهو يفكر فيها كما يفكر في أي مسألة أو معلومة علمية جديدة، ولا تتحول اللغة إلى تفكير غير مباشر يعمل في الوقت نفسه مع النشاط المباشر إلا عندما تترسخ قواعده في اللاوعي من الألفة والدربة فتصبح أداة لفكره؛ لذا جدير بأن ينبه إلى أن امتلاك الفرد للعربية لا يتحقق إلا عندما يصبح قادراً على التفكير بالعربية، أي بتحويل العربية إلى أداة لفكره.

مما يعني أن تفكير الإنسان ينقسم إلى اثنين:

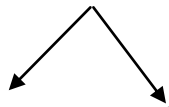

في القضية المنطقية الرياضية في بناء اللغة ونطقها

---

١. حبلص، محمد، من حسن علم اللغة، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط1/ 1414هـ-1994م، ص255.

وهذا ما يجعل الإنسان قادراً على أن يفكر في المسألة العلمية حسابياً ومنطقياً....الخ، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يتكلم، بمعنى أن تتم عمليات القياس على الأنظمة اللغوية صوتياً وصرفياً ومعجمياً ونحوياً وبيانياً مع مراعاة حال المتلقي وسياق المقال، وإرسال إشارات إلى جهاز النطق لإخراج كل صوت من مكانه وترتيبه في كلمات فجمل، يتم ذلك في زمن مذهل.

وهذا ما يجعل المرء يشعر بجهد في التفكير عندما يفكر في قضية علمية أو فكرية في حين لا يشعر بأنه يفكر أصلاً عندما يتكلم عن هذه القضية، لأن اللغة تصبح "ملكة" على حد تعبير ابن خلدون:[1]

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني. وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أونقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، إنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع . وهذا هو معنى البلاغة.

والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرر، فيكون حالاً. ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة. ثم يزيد التكرار، فيكون ملكة، أي صفة راسخة. فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً. ثم يسمع التراكيب بعدها، فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أن يصير له ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم.

---

١. المقدمة، ج5، الفصل6، 33، ص306.

وهذه النقطة هي التي أفاد منها ويتني في تعريفه السابق بأن "اللغات لفكر الإنسان كالأدوات ليديه"

فما هي الملكة: هل تعني: فطرة، موهبة، غريزة، عادة؟ إنها ألفاظ قد تبدو مترادفة غير أنه بينها بون شاسع، فلو عدنا إلى الدلالة المعجمية لمادة "ملك" لوجدنا أن المعنى يشير إلى حيازة الشيء وإمساكه والتمكن منه واكتسابه [1]، مما ينفي كونها غريزة أو فطرة بحتة، فهي مكتسبة، لكنها ليست بالعادة المكتسبة فحسب بل هو أن تكتسب عادة وتمهر بها وتحذق، ويألفها دماغك، فتبدأ أولاً بالتفكير المباشر، ثم عندما تتكرر يحفظ الدماغ خطواتها وترتيبها فينوب عنك (إن جاز التعبير) ويؤدي المهمة وحده مصدراً أوامره مباشرة إلى أجهزة اللغة وجهاز النطق فتتكلم، وذاك يشبه حقاً ما يحدث لدى ذوي الصناعات والمهارة، فالسائق المتدرب في البدء يفكر خطوة خطوة بشكل واع مباشر بما يريد أن يفعل ابتداءً من جلوسه إلى مقعد القيادة وتراه يسأل نفسه ماذا أفعل الآن، ثم عندما يألف ذلك تجده لا يفكر إلا أنه دخل السيارة، فقطع المسافات والتزم بإشارات المرور والسرعة، وتوقف ومشى حسب الأصول وهو يتكلم أو يفكر في أمر آخر حتى وصل إلى مقصده دون أن يشعر بأي جهد فكري لأنه امتلك هذه المهارة، فعلى الرغم من أنها عادة إلا أنها صارت لشدة امتلاكه لها كأنها موهبة أو غريزة.

فاللغة ملكة لدى الإنسان حتى المجنون: لأنه يبدأ بالاكتساب وهو في بطن أمه يختزنها مع شق سمعه وبصره، وعندما يخرج إلى الحياة يظل يختزن ثم تبدأ البأبأة والمأمأة، بالحرفين الشفويين أبسط الأصوات وأيسرها مخرجاً عليه، ثم يقلد الكبار ويردد كلماتهم وجملهم، ثم يؤلف جملاً لم يسمعها من قبل، وكما يتفاوت

---

١. ابن منظور، لسان العرب (ملك).

الحرفيون في قدراتهم وامتلاكاتهم وإتقانهم يتفاوت المتكلمون في ذلك، فالملكات تتفاوت لدى المتكلمين بتفاوت تحصيلهم فيها ومراسهم لها وامتلاء كفاياتهم بها

وتشير الدراسات إلى أن "الخصائص التي ينفرد بها الذكاء البشري مستمدة مباشرة من امتلاك الإنسان للمقدرة اللغوية"[١].

ولو رجعنا إلى علم النفس اللغوي لوجدنا أن العلماء يتفاوتون في نظرهم إلى اللغة فمنهم من يرى أن اللغة تسبق الفكر، ومنهم من يرى أنها لاحقة عليه وهي وسيلة اتصال ومنهم من يرى أنهما يمشيان معاً فلا وجود لأحدهما دون الآخر.

لكن الدراسات الأخيرة في علم اللغة العصبي تخطّئ القول بأن اللغة وسيلة اتصال، وترى أن ذلك يعني أننا لا نختلف عن الحيوانات، وتثبت الدراسات بالتجربة فساد هذا القول وترى أن اللغة الإنسانية أعمق من مجرد الاتصال، وإن كان الاتصال إحدى وظائفها.

فإن نظم التواصل عند الحيوان إما أن تعبر عن حالة المرسل في تلك اللحظة، أو تحاول التأثير في سلوك المستقبل، أما اللغة الإنسانية فلا تقف عند حدود التعبير عن رغبة الإنسان أو مشاعره، ولا عند تأثير في الآخرين مع أننا كثيراً ما نستخدمها في أداء هذه الوظائف، بل تعبر أيضاً عن كم لا نهاية له من المعلومات التي لا تقتصر على أرقام الهواتف والمهن والأذواق في اختيار الموسيقى وألوان الطعام، بل تشمل أيضاً حجم الكرة الأرضية (الحقيقي وعمر الكون التقديري) والمبادئ الأساسية والتسويق والرياضيات وطبائع الخنافس وسلوك

---

١. بيكرتون، ديريك، اللغة وسلوك الإنسان، ترجمة: د. محمد زكريا، جامعة الملك سعود، الرياض، ط 1، 1422هـ_200.

البروتونات والأحداث التي شهدتها مدينة مدريد يوم 2مايو أيار عام 1808م، وهذه جميعها أشياء لا علاقة لها بما يريد المتكلم أو الكاتب في لحظة الكلام."[1].

وهذا ما جعل الإنسان جديراً بخلافة الأرض، ومكلفاً بالشريعة والرسائل السماوية في حين لم يكلف الحيوانات بذلك. يقول ابن خلدون[2]:

وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس، والحركة، والغذاء، والكن، وغير ذلك. وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيء لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى، والعمل على اتباع صلاح أخراه. فهو مفكر في ذلك كله دائمًا، لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر.

وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع. ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان، بل الحيوان، من تحصيل ما تستدعيه الطباع، فيكون الفكر راغبًا في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم أوزاد عليه بمعرفة وإدراك أوأخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن يلقوه، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه. ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق، وينظر ما يعرض له لذاته واحدًا بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون علمه حينئذ بما يعرض لتلك الحقيقة علمًا مخصوصًا، وتتشوق نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك، فيفزعون إلى أهل معرفته، ويجيء التعليم من هذا.

فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر. والله أعلم.

---

١. اللغة وسلوك الإنسان ص6.

٢. المقدمة، الفصل الخامس، ص183.

وتوصل بعض علماء النفس إلى أن التفكير ينقسم إلى نوعين[1]:

1- التفكير الموصول: يضم عمليات حسابية تتم فقط بفضل الاستجابات العصبية المحفزة بوجود أشياء خارجية، فهي استجابة لغريزة فطرية.

2- التفكير المفصول: يضم عمليات حسابية تتم وفق تمثيلات داخلية أكثر ديمومة لهذه الأشياء، فهذه العمليات الحسابية لا تنشأ بالضرورة عن أسباب خارجية، ولا تؤدي بالضرورة أيضاً إلى استجابة حركية فورية، فجميع المخلوقات فوق المستويات المتدنية من تطور الدماغ قادرة على التفكير الموصول، بينما الإنسان وحده هو القادر على ممارسة التفكير الموصول والمفصول معاً. ومن هنا كان التفكير الموصول فعالاً في حماية أرواح المخلوقات وسلامتها.

ومن هنا كانت اللغة هي الشيفرة التي تمثل الأفكار، فاللغة هي التي توجد المساحة العصبية المخصصة للعمل (التفكير) فلو لم نكتسب اللغة لما استطعنا تمثيل الأشياء[2].

وقد يدعي قائل بأن الإنسان يفكر وإن لم ينطق، كما في الصم، نقول على الرغم على أنه لا ينطق إلا أنه يمتلك لغة ما في دماغه يشترك مع الناطقين فيها وهي تكون بدءاً على شكل إشارات كهروكيميائية ثم تتحول إلى الرموز المنطوقة، والأهم عندما يحولها إلى إشارات مرئية.

وعليه فإن ثمة علاقة وثيقة – من وجهة نظري- بين التفكير المباشر والتفكير المفصول والوعي وهو غير آلي؛ وبين التفكير غير المباشر والتفكير

---

١. المقدمة، الفصل الخامس، ص100.

٢. انظر اللغة وسلوك الإنسان، ص117.

الموصول واللاوعي، فهو آلي وتجدر الإشارة إلى أن التفكير (المفصول (المباشر)) لا يمكن أن يكون بدون نظام إشاري رمزي[١].

وينبغي أن نشير هنا إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن اللغة تتلقى بطريقتين، عن طريق الوعي وعن طريق اللاوعي[٢].

– أما التعلم عن طريق الوعي فيكون باختيار المتعلم الانخراط في برنامج دراسي يدرس فيه قواعد العربية وأصولها من نحو وصرف وصوت...إلخ.

– وأما التعلم عن طريق اللاوعي فيكون بالإلحاح على الذهن بالاستماع إلى اللغة مطبقةً على ألسنة أهلها، وفي الإعلام، وفي المواقف الحياتية المختلفة، وفي النماذج اللغوية العليا المسموعة، فتتكرر ألفاظ، وتُرسّخ قواعد صوتية وصرفية ونحوية في دماغ المتعلم، فيألف سماعها، ثم تؤدي ألفته هذه إلى استخلاص قواعدها ذهنياً، فيؤدي ذلك إلى ألفة وجرأة تدفعانه إلى محاكاة النموذج المسموع بالتقليد، فتتحصل له الملكة"، والأصل أنها تتلقى عند الطفل من المجتمع عن طريق اللاوعي. وتختزن فيه كلمات بجرسها وتترسخ أفكاراً بدلالاتها وتصبح جزءاً من تكوينه الثقافي، وقد أدرك العرب القدماء هذه المسألة فكانوا يدفعون بأبنائهم منذ الصغر إلى البادية حيث القبائل الفصيحة فيتعلمون الفصاحة عن طريق اللاوعي بالاستماع، وتعلمون– أن إمام الفصحاء رسولنا محمداً –صلى الله عليه وسلم – هو أحد أئمة هذه المدرسة. لقد وضع ألفرد توماتيس كتابا بعنوان الأذن واللغة، يتكلم فيه على دور هذا العضو الرئيس في حياة الإنسان الجسدية والنفسية

---

١. انظر اللغة وسلوك الإنسان ص117.

٢. أشار بعض الباحثين إلى تعليم اللغة عن طريق الشعور واللاشعور، انظر: السيد، محمود أحمد، شؤون لغوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، ط 1، 1409هـ _1989م، ص 105–109.

والاجتماعية. فهي الآلة التي بها يتلقف الإنسان الكلام والتي بواسطتها "يستيقظ على وجود ذاته"، كذلك فإن التشريح ودراسة تطور الجنين في رحم أمه يدلان على أن الفم (عضو الكلام) والجزء الخارجي من الأذن (عضو تلقي الكلام) يكونان مجموعة واحدة قبل وصول الجنين إلى مرحلة متأخرة من نموه. وهذا يدل عل أن استعمال الحنجرة في الكلام يكون مشروطا باستماع الأذن له. كما يدل على أن معرفتنا للعالم – وهي معرفة صوتية قبل كل شيء– تتم من خلال تعرفنا "عضويا" على صوتنا بواسطة الأذن.

ولسنا نرى "أن الاكتساب هو التعلم الناتج من التعرض للغة وممارستها في ظروف لامنهجية كما هي الحال في تعلم الطفل لغته الأولى، أو تعلم الأجنبي اللغة عن طريق الاستعمال والاحتكاك بالناطقين بها، أما التعلم فهو ما يحدث نتيجة لمجهود منظم كما في الدراسة المنهجية للغة ما، ومن هنا كان التأكيد على"الاكتساب" بالنسبة للغة الأولى، وعلى" التعلم بالنسبة للغة الأجنبية التي غالباً ما يدرسها المرء في ظروف منهجية[1]".

ونرى أن هذا التفريق بين الاكتساب والتعلم وهمي، فاللغة اكتساب سواء عن طريق المجتمع بالسماع، أو عن طريق المناهج بالتعلم. غير أن الفرق بينهما هو أن نقطة الانطلاق في الأول هي اكتساب اللغة تطبيقاً محاكاة للاستعمال، ثم اختزان القاعدة ذهنياً للقياس عليها، وذاك عن طريق الإلحاح على اللاوعي كما ذكرنا آنفاً.

– وأما الثاني فهو اكتساب يتحصل بوعي وإدراك من المتعلم بأن يتعلم القاعدة ثم يحاكيها استعمالاً، فهما عمليتان متعاكستان تؤديان إلى نتيجة واحدة هي اكتساب اللغة.

---

١. اللسانيات التطبيقية في العالم العربي، ص234.

ومن الملاحظ أن الطالب العربي بات كالأجنبي حين يتعلم العربية يهتم بتعلمها عن طريق الوعي من خلال الاكتفاء بمفردات المنهج الذي بين يديه، وهو غالباً ما يكون مكتوباً، ويهمل جانب الاكتساب والتعلم عن طريق اللاوعي؛ لذا نرى أنه من الضروري أن يراعي أستاذ العربية التحدث بالعربية الفصحى لا في قاعة الدرس فحسب، بل خارجها في مكتبه، في مخالطته للطلاب في الرحلات وغيرها، كما ينبغي أن توّفر مادة لغوية وثقافية متنوعة من النثر والشعر، وفق مستويات مختلفة يزود بها الطالب ليستمع إلى أكبر قدر ممكن من النماذج العليا، ولابد من تنبيه الطالب إلى هذه المسألة ودورها في ملء كفايته بالعربية الفصيحة، كما تتيح للطالب أيضاً أن يقارن بين ما تعلمه في المنهج الدراسي وما يستمع إليه،

وهذا مفاد قول ابن خلدون[1]:"

اعلم أن ملكة اللسان المُضَري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت. ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مُضَر التي نزل بها القرآن. وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها، كما قدمناه. إلا أن اللغات لما كانت ملكات، كما مر، كان تعليمها ممكنًا، شأن سائر الملكات.

ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولَّدين أيضًا في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم. فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، وتزداد بكثرتها رسوخًا وقوة.

---

١. ابن خلدون، ف6، 36، ص314.

وقد سبق بذلك الألماني هوجوشو خاردت الذي عد من أوائل من أشاروا إلى دور الأفراد في حفز التغيرات اللغوية "ذلك أن إبداع فرد ما يمكن أن يشيع عن طريق التقليد[1]".

فالفرق بين الطريقتين في الاكتساب اللغوي هو الفرق بين التفكير المباشر، والتفكير غير المباشر.

إن من يتعلم لغة غير لغته الأم يبدأ عن طريق الوعي بالتلقين والدراسة فهو يتعلمها عن طريق التفكير المباشر، فإذا مارسها وسمعها كثيراً صارت ملكة وتحولت إلى منطقة التفكير غير المباشر؛ لذا فإن أهم سبب يحول بين العربية الفصيحة اليوم وأبنائها هو أنها تحولت إلى نشاط مباشر للفكر كدرس الفيزياء والرياضيات ونحوها، فالطالب يتعلمها كأي لغة أجنبية، لذا ينبغي أن نسعى إلى تحويلها إلى منطقة التفكير غير المباشر، غير الواعي وذلك باتخاذ التدابير المناسبة؛ وذلك بتحويلها إلى ملكة برفع الكفاية اللغوية وما يترتب عليها من أداء بالتركيز على حاستي السمع والبصر، والسمع هو الأهم والأول – كما ذكرنا آنفاً– بألا يستمع المرء ابتداء من مرحلة كونه جنيناً إلا إلى النماذج اللغوية الفصيحة العليا من قرآن وحديث نبوي ومحاضرات ومناظرات، فيجب أن تكون البيئة ابتداء من الأم والأب بيئة تتخذ من الفصيحة لغة حوار ونقاش وحياة وعلم، ثم عندما يذهب الطفل إلى المدرسة ينبغي أن تراعى فصاحة المعلمة وسلامة مخارج الأصوات لديها، فإن تلقى الطفل كفايته باللغة الإنجليزية والعامية صار صعباً عليه تعلم الفصيحة؛ لأنها إذ ذاك تكون هي الأجنبية، كما ينبغي ألا تقع عينه

---

١. إفيتش، ميلكا، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 2000م، ص 95.

على الحروف العربية إلا في أبهى صورها وأجمل خطوطها بفرضها على لوحات الإعلام والشاشات واللافتات والآرمات، لأن ذلك يؤثر في لاوعيه.

فالتثقف والتعليم ما بعد الطفولة يصقلان الشخصية، بيد أن التثقف والتعلم في مرحلة الطفولة وخاصة المبكرة يبنيان الشخصية، وحقيقة الأمر أنه لا يمكنك أن تكون متكلماً وفصيحاً – إلا ما ندر– ما لم تكتسب تلك الملكة منذ الصغر.

ونحن عندما نتكلم عن شخصية الفرد لا يمكن إلا أن نبدأ من الطفولة إذ تشير الدراسات إلى أن أفضل سن لتعليم الإنسان من 3–12 سنة حيث يكون قادراً على حفظ المعلومة واسترجاعها"[١].

وهذه الفترة ذاتها يتم فيها بناء معظم شخصية الإنسان ومهاراته ومعتقداته.

وينبغي أن ندرك بأن اللغة وإن كانت وسيلة نقل المعرفة إلا أنها ذاتها معرفة، وأن التفكير والمضمون للرسالة اللغوية يسير موازياً ومساوياً للألفاظ الدالة عليه، وقد حسم الجرجاني هذه المسألة حين قال بالنظم رافضاً الفصل بين المبنى والمعنى، فقال بأن المباني تقتفي في نظمها آثار المعاني[٢]، وهو ربط حقيقي بين اللغة والفكر.

فالمرء حين يكتسب اللغة يكتسب ما تحويه من مضمون إذ يسير خط المبنى موازياً لخط المعنى ليؤديا معاً إلى ما يسمى بالدلالة فهي محصلة الاثنين معاً.

خط المبنى ←

الدلالة ↙

١. انظر: الكيلاني، إيمان، اللغة والثقافة والطفل، البواسل، مديرية التوجيه المعنوي والثقافة العسكرية، السنة (5)، العدد(15)، أيلول2004م، ص22.

٢. انظر: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت: محمد الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط 2، 1407هـ–1987م، ص94، 95.

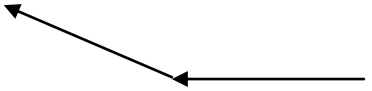

خط المعنى

في الذهن (قيم)

واللغة في ذاتها تخضع لمجموعة من التقاليد اللغوية الرمزية التي تعارف عليها المجتمع، وهي أيضاً تنقل قناعات ومعاني لدى الفرد أو قيماً تعارف عليها المجتمع، وهدفها خلق شخصية الفرد (المتلقي):

مجموعة من الرموز التقاليد اللغوية التي تعارف عليها المجتمع

تشكيل شخصية الفرد(اللغوية والفكرية)

معان وقيم تعارف عليها المجتمع

وإذا كانت اللغة هي المخزون الجمعي لممارسة أبناء المجتمع ملكة اللسان كما حدد دي سوسير، والكلام هي الحدث الحقيقي المادي لممارسة الفرد لملكة اللسان.

فهذا يعني أن اللغة أشبه ما تكون ببحيرة تصب فيها جداول كلام الأفراد لتشكل في النهاية شخصية أمة، ولتعبر عن روح أمة؛ وبالمقابل فإن هذه البحيرة هي التي يمتاح منها الأفراد الكلمة (معنى ومبنى) وبها يصوغ جملة نحوية لتؤدي وظيفة دلالية، والدلالة هدفها تغذية المتلقي والتأثير فيه ليتبنى موقفاً أو يتخلى عن موقف، ليتبنى أفكاراً ويرذل أخرى، وعليه فإن المتكلم (الفرد) يمكنه أن يؤثر في أفراد، وبالتالي في مجتمع، وبالمقابل فإن الفرد محكوم بما يتبنى من قيم يتبناها المجتمع يكتسبها المرء إذ هذه الثنائية من ثنائيات دي سوسير ذات حدين في دلالتها التقابلية، فالأصل أن تكون تقابل تكامل لا تنافر وذلك عندما يتبنى الفرد قيم المجتمع وعاداته ويسعى إلى تطويرها بما يتفق ومصلحة العامة، غير أن الفرد

في المجتمع الإنساني خاصة نسيج وحده، فعلى الرغم من اتفاق في الأفراد بالسمات العامة والهيكل العام إلا أنه يتميز ببصمة إبهام، وبصمة شعر، وبصمة جينية، وبصمة عين، وبصمة أذن، وبصمة رائحة، وحتى بصمة لغوية ومن ثم بصمة فكرية ورؤيا خاصة تتفق مع غيرها وتتشابه لكنها بالتأكيد لا تطابقه، وجماع بصمته خصوصية الملكة، ومن هنا كان الفرد إرادة وقدرة للتعبير، وذاك عندما يخرج إلى مجتمع تسوده أفكار وعادات تحط من قدره، ويلهمه تحصيله وثقافته وإدراكه إلى رؤى يمكن أن تغير واقعه وواقع المجتمع بما فيه نجاته وحياته، وذلك من خلال النموذج المطروح.

فكما أن المجتمع يصوغ شخصية الفرد، فإن الفرد المتميز يمكنه أن يوجه مجتمعاً ويغيره.

فالكلام لدى الفرد يسير في خطين متوازيين متلازمين متتابعين ليشكل هوية الفرد، الذي بدوره يدخل في مخزون المجتمع ويغير من فكر أمته كما في المخطط التالي:

مجموعة من الرموز والتقاليد التي تعارف عليها المجتمع

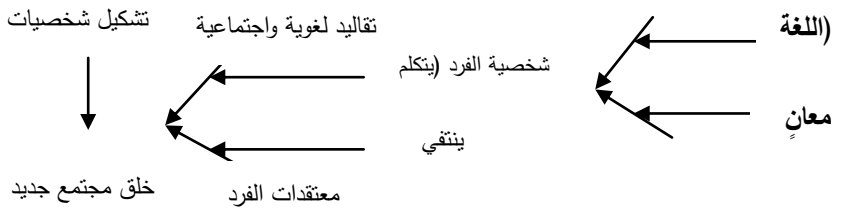

هذا هو مناط الحضارة وهكذا تبنى الأمم بالكلمة الموجهة المدروسة، وبالشخصيات القادرة على التأثير من خلال نماذجها المشرقة.

فالكلمة (الفكرة)، والفكرة الكلمة هي أداة التغير، وهي التي تصنع المعجزات، وهي التي تحيي وتميت، فبالكلمة أمر الله الأرض فاستقرت، والسماء فرفعت، وبالكلمة خاطب رب العزة والجلالة السموات والأرض فقال لهما: "ائتيا طوعاً أو كرهاً" وبالكلمة أجابتا: "أتينا طائعين" وبالكلمة خاطب الله الملائكة وإبليس فأمرهم بالسجود لآدم، وبالكلمة خرج إبليس من الجنة إلى الأبد وخلد في النار، وبالكلمة وسوس الشيطان لآدم وزوجه فبدت لهما سوآتهما، فأخرجهما من الجنة إلى الأرض بالكلمة، وها نحن نتحمل تبعة الانصياع لكلمة العدو الناصح، وبالكلمة تاب آدم إلى ربه فقبل توبته، وبالكلمة كان عيسى، وبالكلمة جاء الرسل جميعاً، وبكلمتهم غيروا المجتمعات وأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وبالكلمة يوحي شياطين الإنس والجن إلى بعضهم زخرف القول، وبالكلمة كان الكشف عن القوانين الطبيعية والرياضية التي تحكم الكون فكانت الإنجازات العلمية والتقنية،.. الخ فهل الكون إلا كلمات؟.

وكما يتم اكتساب اللغة بمضمونها عن طريق اللاوعي أو الوعي، فإن التغيير بالكلمة الفكرة يكون أيضاً عن طريق اللاوعي أو الوعي.

يتم عن طريق الوعي كما نفعل الآن بمعالجة موضوع اللغة والفكر وهوية الفرد لتنبيه وعي المتلقي وتحفيزه على نقد ما حوله، كذلك التخطيط والتغيير لإحياء العربية وتعريب الفكر العربي.

-أما الطريق الثاني وعن طريق اللاوعي وذلك بالإعلام الموجه والكتاب المدرسي، والأدب، والفن، والمسرح، والدراما، والأغنية، والإعلانات التجارية.

2 – الكفاية والأداء:

ويقصد بالكفاية المقابل لـ" competence"، والأداء المقابل لـ" performance" عند تشومسكي، أما الكفاية فترجمت إلى العربية أحياناً بـ"السليقة" [١] وأحياناً أخرى بـ"الطاقة" [٢]، وترجم الأداء عند باحثين آخرين بـ"الإنجاز" .

وتخلط بعض الدراسات الأسلوبية واللسانية خلطاً عجيباً بين مفهومي الكفاية والأداء عند تشومسكي، ومفهومي اللغة والكلام عند دي سوسير، وأحياناً أخرى تجد رؤيتهم ضبابية غير واضحة في التفريق بينهما، وبعضهم يراهما مترادفين[٣].

وواقع الأمر أن تشومسكي بدأ من حيث انتهى دي سوسير في ثنائيته بين اللغة والكلام، ولم يكرر ما قاله دي سوسير بطريقة أخرى.

فمفهوم اللغة –كما هو معروف–هو المخزون الجمعي الكلي لإنتاج مجتمع ما من اللغة بممارسته هذه الملكة، فهي حصيلة كلام+ كلام + كلام [٤]، وهي تشكل بذلك بحيرة يصب فيها كلام الأفراد على فترات زمنية، أو في فترة زمنية محددة، ولا يحيط بها محيط، وبالمقابل هي التي ترفد الفرد فيمتاح منها ما يحتاج إليه من كلام، حيث الكلام الحدث المادي الحقيقي الذي يمتلكه الفرد من اللغة، وهو بالمقابل يرفدها، فهو يأخذ منها بعضاً يساعده على التواصل من بيئته

---

١. الموسى، نهاد.، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير، عمان، ط 2، 1408– 1987م، ص59

٢. بوحوش، رابح، اللسانيات وتحليل النصوص، عالم الكتب الحديث، إربد، وجدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1، 2007م، ص 49.

٣. السابق ص49.

٤. انظر: ده سوسر، فريدنان، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي، ومجيد نصر، دار نعمان للثقافة، لبنان، ، د.ط. 1984م، ص31–33 .

الاجتماعية والتعبير عن فكره وأفكاره، وبالمقابل يمدها بما يتميز به من خصوصية في ممارسته لهذه الملكة .

إن العلاقة بين اللغة والكلام كالعلاقة بين المعجم اللغوي لكل اللغة Dictionary، وبين المعجم الخاص بالفرد Vocabulary، فالعلاقة بين اللغة والكلام، هي العلاقة بين إنتاج مجتمع، وإنتاج فرد، بين كل واسع ضخم مثال، وبين جزء محدود ضيق منتخب واقع.

– أما **الكفاية:** فهي مجموعة القواعد التي يختزنها الفرد من اللغة، يقيس عليها عندما يتكلم، ويحكم بها على ما يسمع بالصحة أو الخطأ.

و**الأداء:** هو القدرة الحقيقية على تطبيق هذه القواعد المختزنة في الدماغ.[١]

إذاً الفرق بين الكفاية والأداء هو الفرق بين النظرية والتطبيق؛ لذا فإن الفجوة بينهما تضيق وتتسع حسب قدرة المرء على تحويل النظري إلى تطبيق، وتمثل القواعد اللغوية عند النطق واستعمالها صحيحة .

إن تشومسكي وإن كان ينطلق من فكرة اجتماعية اللغة عند دي سوسير، بإشارته عند الحديث عن الفطرة اللغوية إلى أن الإنسان يولد وفي دماغه قوالب ذهنية لجميع لغات بني البشر، وعلى اختلاف أجناسهم، وأن هذه القوالب يملؤها الفرد من المجتمع بالاكتساب [٢]، إلا أن تشومسكي من أتباع المدرسة الذهنية الأمريكية التي تصب اهتمامها على العمليات العقلية التي تجري قبيل نطق المرسل، والعمليات العقلية ما بعد سماع المستقبل الرسالة اللغوية.

---

١. انظر: المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي، عمايرة خليل أحمد، دار وائل، ط 1، 2004، ص252، ص276.

٢. انظر مثلاً: زكريا، ميشيل، الألسنية التوليدية التحويلية، وقواعد اللغة العربية، الجملة البسيطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 ن1403هـ–1983م، ص 7–9. وعمايرة، خليل أحمد، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، علم المعرفة، جدة، ط1، 1404هـ –1984م، ص 54– 58.

إذ تشومسكي معني بالفرد لا بالمجتمع، والكفاية والأداء كلاهما يشكلان جزأي الكلام، أي مناطهما الفرد، فهو يضيف إلى هذا المصطلح (الكلام) إضافة نوعية حقيقية.

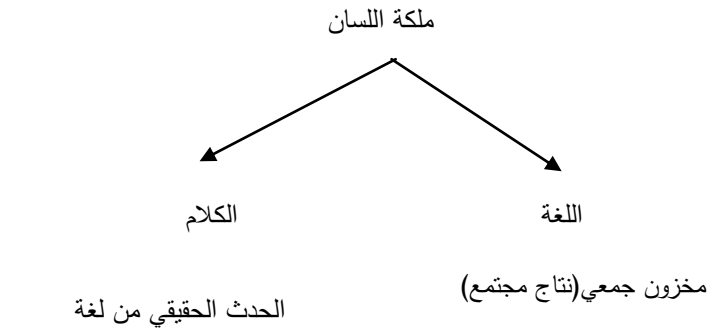

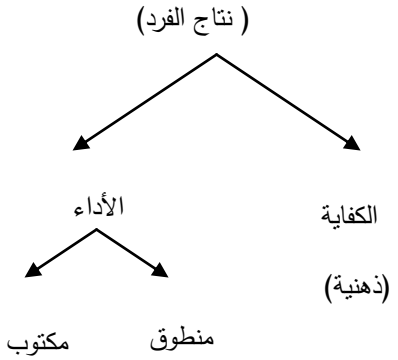

وحقيقة الأمر أن المجتمع يمتلك لغته من ما نطق وكتب أفراده، وهو أيضاً نموذج قياسي لمنطوق الفرد وكتابته، حيث تظهر محصلة ما اكتسبه فيها. وحين يخفق الفرد فذاك مؤشر إلى أن ثمة خللاً في ما يسمع أو ما يرى.

نرى أن من الضروري أن يفيد واضع المناهج ومعلم اللغة من مفهومي: اللغة والكلام، وذلك بأن ينتقي بالدراسة والتخطيط الدقيق أهم ما يحتاجه متعلم العربية من قواعد أساسية من كل مستوى من مستوياتها ما يكفيه ليتقن الكلام، فيختار

الأهم والأشيع منها مما يصلح لتشكيل كفاية نظرية شاملة ليقيس عليها في أدائه المنطوق والمكتوب، بما يضمن تواصله مع أهل اللغة وينمي فكره، وبما يساعده أيضاً على تنمية كفايته إن أراد، والمقاربة بين أدائه وبينها، كما ينبغي أن تنتخب النماذج اللغوية الرفيعة التي تمثل شخصية الإنسان العربي المعتز بذاته وأمته والجريء الصادق الواعي كما في شعر المتنبي والمعري والشريف الرضي، لأن الطالب وهو يتعلم اللغة منهم يقتبس رؤاهم ويتبنى مواقفهم ويتأثر بشخصياتهم ويكون امتدادا لفكرهم .

وقد سعى بعض الباحثين إلى توظيف مفهوم الكفاية في رسم مناهج تعليم اللغة العربية لأبنائها وللأعاجم، وطبقه في تلك المناهج عملياً[١].

إن الإفادة من فكرة وجود الفجوة بين الكفاية والأداء من شأنه أن يركز على الأداء في قياس إتقان المتعلم للغة، فالتعويل على النطق، وسلامة الكتابة، فهما المؤشران على مستوى كفايته.

ولما كانت الفجوة في العربية الفصيحة بين المنطوق والمكتوب ضيقة جداً، فغالباً تكتب كما تنطق. كان من الضروري قياس أداء الطالب يومياً نطقاً وكتابةً، حيث النطق السليم يعينه على الكتابة السليمة، والكتابة السليمة ترشده إلى النطق السليم، وأن تكون الجمل المدروسة ذات محتوى قيم لا مجرد جمل صماء سليمة بناء خاوية دلالة، وأرى أن تقلص دائرة الأسئلة الموضوعية في تعليم العربية، وتوسيع دائرة الأسئلة الكتابية، والاستماعية، وألا يُكتفى بالامتحانات الثلاثة المألوفة في النظام التعليمي عموماً، فلا بد أن يصحح منطوقهم ومكتوبهم يومياً أو أسبوعياً، لتصبح العربية عادة ممارسة حية.

---

١. العناتي، وليد، نهاد الموسى، وتعليم اللغة العربية، رؤى منهجية، سلسلة كتب ثقافية، وزارة الثقافة الأردنية، عمان، 2005م، ص135 وما بعدها، ص 237.

موقف العربية بين المعيارية والوصفية

إذا كانت جل اللغات الحديثة اليوم تنتهج نهجاً وصفياً؛ لانسجامها مع منطقها ومعتقداتها وهدف حياتها، وخاصة الأوروبية التي تحولت إلى هذا المنهج عندما اكتشفت السنسكريتية التي كانت تقعد للغة المنطوقة الحية بعد أن كانت معيارية – فهذا لا يعني أنه على العربية أن تسير في ركابها، وتحذو حذوها وتنقطع عن جذورها بدعوى أن العامية منطوقة حية، وأن الفصيحة ميتة.

أرى أنه من الضروري أن يكون كل من المعلم والمتعلم على وعي تام بحقيقة الفرق بين العربية، وبين اليونانية واللاتينية، ابتداء من الأصل الذي انبنى عليه الدرس اللغوي.

إن قواعد اليونانية واللاتينية المعيارية قامت على أساس النصوص المكتوبة[1]، لا المنطوقة؛ مما جعل قراءة تلك النصوص والجزم بقواعدها أمراً ظنياً غير موثق ولا موثوق؛ لأن الفجوة بين النظام الكتابي في تلك اللغات واسعة، فقواعدها قامت فعلاً على نصوص ميتة، فثمة فجوة بين زمن كتابة النصوص موضع الدرس وزمن التقعيد.

- أما قواعد العربية فقد بدأت وصفية، يخرج اللغويون إلى القبائل العربية النقية لغتها، يجمعونها من ألسنة العرب الفصحاء، ثم يستقرئون ما جمعوا، ثم يستخلصون القواعد حسب ما هو منطوق فعلاً، فهي قواعد مشتقة من نصوص حية واقعاً، لا مثالاً مفترضاً، ثم اقتضت خصوصية العربية المرتبطة بالقرآن الكريم وقداسته بأن تتحول قواعدها إلى معيارية؛ لضبط اللسان العربي، وجمع العرب جميعاً على دين واحد وعلى لغة ثقافية واحدة، باعتبارهما أهم مقومين إضافة إلى الأرض لبناء دولة لأمة متجانسة، وتأسيس قوة حضارية إنسانية علمية، إنها لغة مشتقة منتخبة من أفضل لهجاتهم، اعتادوا أن يستعملوها قبل

---

١. انظر مثلاً: اتجاهات البحث اللساني، ص9، وعلم للغة مقدمة للقارئ العربي، ص 322.

نزول القرآن في محافلهم الثقافية، وليتسنى لغير العرب من المسلمين أن يتقنوها بدل التشتت في لهجاتها المتشعبة، محافظين على ظاهرة الإعراب التي تختص بها العربية دون غيرها، والتي لا يمكن لها أن تنضبط بغير قواعد مطردة صارمة.

فقد كانت العربية زمن تقعيدها منطوقة مستعملة لغة تواصل وحياة، قبل أن تكون مكتوبة، فهي ليست قواعد مكتوبة عن نصوص مكتوبة بائدة غير مجزوم بصحة قراءتها – كما هي حال اليونانية واللاتينية مثلاً– ناهيك عن أن الفجوة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة في العربية الفصيحة ضيقة جداً لا تكاد تذكر، فقد وضعت قواعد كتابية ضابطة تحذو حذو المنطوق لضبط اللسان العربي، وحفاظاً على أن يكون المكتوب دالاً على المنطوق، ليتسنى لقارئ القرآن أن يقرأ بدقة .

فإذن تجربة العربية مع المعيارية مغايرة تماماً لتجربة اليونانية واللاتينية؛ لذا تسقط الدعوة إلى تكريس العامية العربية في الموقف العلمي الثقافي، والإعلامي، استعمالاً وتقعيداً، بزعم أنها حية، وأن الفصيحة ميتة، وواقع الأمر أنها حية يخطط لها كي تموت [1]؛ وليس أدل على حياتها من أن الأمي يفهم بها الحديث الثقافي والقرآن الكريم والخطب الدينية وغيرها، والحديث الشريف، والأمثال والأشعار التي يسمعها، وما يستغلق عليه إلا قليل مرتبط بفهم بعض الألفاظ، أو المصطلحات، وهذا أمر طبيعي في لغة يقارب عمرها ألفي سنة، بل وفي اللغات الحديثة كالإنجليزية مثلاً، وأحسب أنك لن تجد لغة على وجه الأرض يستطيع أبناؤها أن يفهموها وهي معمّرة هذا العمر خلا العربية.

---

١. للاطلاع على العوامل التي تساعد على إحياء الفصيحة والعوامل التي تساعد على توسيع الهوة بينها وبين لهجاتها، وعلاقة الفصيحة بالثقافة والهوية، انظر: بحوث في اللغة والتربية ص 125–129، ص288–389.

إنها لغة يتواصل بها الناس ثقافياً معاً، ويتواصل بها المسلمون مع ربهم في صلواتهم الخمس المفروضة، فضلاً على السنن والنوافل، لا تقبل صلاتهم إلا باللسان العربي المبين.

فإذا انتفت صفة موت الفصيحة، سقطت الدعوة إلى العامية، وإحلالها مكانها.

فـ"اللغات الأخرى التي لم يبرز في تاريخها حدث كالقرآن الكريم، خضعت إلى حد كبير لتطورات زمنية تفاوتت في تأثيرها فيها، لكنها تنتهي عادة بموت لغات وحياة لغات أخر. فالإنجليزية القديمة غير الوسطية، وغير الحديثة، مع أن المدى الزمني بين الواحدة والأخرى لا يتجاوز 500 سنة، وابن الحديثة لا يستطيع التعامل مع تراث الوسيطة ولا القديمة.

إن كثيراً من اللغات ارتبطت في حياتها أو موتها بحياة شخص أو موته أو تفوقه أو حياة مجموعة غازية أو انهزامها، لكن العربية تختلف في هذا البعد اختلافاً يجب ألا يستهان به."

وإذا كانت اللغات الأوروبية تنظر إلى لغاتها على أنها غير ناضجة وتدعها تنضج على ألسنة كل جيل، فإن العربية مرت برحلة طويلة نطقا وكتابة من أشورية وكنعانية وآرامية وثمودية فنبطية فعربية قريش، فلما كانت في أوج نضجها وقمة استحكامها صوتاً وصرفا ونحوا ومعجما نزل كلام الله بها فثبتها في القمة، والعاميات اليوم هي الناقصة المتردية من القمة؛ ذاك أن قصة اللغة هي قصة الحضارة، تبدأ ضعيفة ثم تقوى باطراد حتى تصل حدها الأعلى ثم يعتريها من عوامل الضعف ما يجعلها تبدأ بالانحدار ثم الاندثار لتحل محلها أخرى.

إن المسلم ينظر إلى هذا الكتاب على أنه حدث اليوم كما حدث الأمس، إن الصعوبة في بعض النصوص لا يعزوها المسلم إلى قدم النص بل إلى ضعف معلوماته، أو انقطاعه وهجره للكتاب وغير ذلك من الأسباب[1]".

---

١. بحوث في اللغة والتربية، 251- 252.

ولا يعني هذا أن العربية الفصيحة تستغني عن المنهج الوصفي، وإنما ينبغي أن تقف وسطاً بينه وبين المعياري، فلا بد من إعادة وصف قواعد العربية، وخاصة النحوية وصفاً دقيقاً بعيداً عن التقدير والتأويل ما أمكن، بإعادة استقراء النصوص الموثوقة الموثقة، واستبعاد النادر القليل، وقواعد الضرورات، وقواعد الشاهد المصنوع غير المستعمل من مناهج التعليم سواء لأبناء العربية، واعتماد وجه واحد من الإعراب على أساس المعنى، والاستغناء عن المحذوف وجوباً والذي لو ظهر لفسدت الجملة مبنى ومعنى كالقول مثلاً بتقدير" أن :المضمرة بعد حتى وفاء السببية وغيرها، فلابد من غربلة النحو من الفلسفة والمنطق اليونانيين اللذين عقدا الدرس النحوي وحوّلاه إلى ضرب من الجدل العقيم[١].

وفي خضم ذاك التوجه المحموم لتكريس العامية عن وعي وتخطيط، لا بد من أن يتكون اتجاه مضاد يسعى خبباً إلى التخطيط لتكريس الفصيحة وإعادتها إلى مكانتها في المشهد الثقافي والعلمي والحياتي[٢].

إن إيضاح مثل هذه الفروق بين واقع العربية، وواقع اللغات الأوروبية من شأنه أن يقنع متعلم العربية بخصوصيتها، وأنه عليه أن يقبلها كما هي موجودة في الواقع، ووفق منهجها، وذاك لا شك يساعده على إتقان قواعدها وقبولها كما هي مدركاً أنّ لكل لغة منطقها الخاص، ومنهجها الخاص[٣].

---

١. لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع انظر: بحوث في اللغة والتربية، ص 88، وعمايرة، إسماعيل، المستشرقون ومناهجهم اللغوية، إربد، دار الملاحي، ط 1، 1408هـ-1988م، ص52-57، 79-81.، و: الكيلاني، إيمان "محمد أمين"، دور المعنى في توجيه القاعدة النحوية من خلال كتب معاني القرآن، دراسة تحليلية وصفية، دار وائل، عمان، ط1، 2008م، ص11-23.

٢. تجدر الإشارة إلى دور د.نهاد الموسى في التخطيط اللغوي لإحياء الفصحى وحوسبتها، انظر: نهاد الموسى وتعليم اللغة العربية، رؤى منهجية ص40-42.

٣. لمزيد من الاطلاع على الفرق بين تجربة العربية، واللغات الأوروبية، والدعوة إلى العامية، وإعادة الفصيحة إلى الحياة انظر: مشكلة العامية والفصحى في تعليم العربية للأجانب، ص86-105.

تتشكل الهوية اللغوية لدى الفرد والمجتمع ابتداء من الرمز الصوتي الذي يؤدي وظيفة إشارية، إذ لكل مجتمع أصوات خاصة يتخذها مادة أساسية في تشكيل لسانه.

وبما أن الوحدة الصغرى التي تتشكل منها اللغة هي الصوت، إذن ينبغي أن يُبتدأ تعليم العربية من الصوت، وهذا أمر لا يختلف فيه؛ بيد أن الملحوظ أنه لا توظف المعرفة اللسانية العلمية التي تضبط النظام الصوتي، ولا تستثمر ثوابت علم الأصوات وقوانينه في تعليم العربية، على الرغم من أن ابن جني حين عرف اللغة التفت إلى أنها نظام مكون من أصوات، وذلك بقوله: حدّ اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[١]، فكان أول من تنبه إلى ذلك.

ولم يلتفت علماء الغرب إلى الصوت وأهميته إلا بوحي من إنجازات العرب الصوتية، وإنجازات السنسكريت التي كشف عنها في أواخر القرن الثامن عشر[٢].

وما كان للدرس اللساني عموماً أن يتطور ويتقدم لو لم ينطلق من الصوت، كما عند دي كورتني، ودي سوسير اللذين أكدا أن الفنولوجيا يجب أن تكون نقطة انطلاق للدراسة اللسانية[٣]، كما تبنت حلقة براغ هذا المبدأ[٤].

1) مفهوما الفونيم (phoneme) والآلفون(Allophone) :

---

١. ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، د.ت، ج1، ص 33.

٢. انظر : السعران، محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، بيروت، ص331.

٣. انظر: من أسس علم اللغة، ص 227.

٤. انظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص199.

عرف الفونيم بتعريفات مختلفة [1]، ونستخلص من وصف الفونيم وشرح نظريته كما عند تروبتسكوي الذي مال إلى أن التعريف الأمثل له تعريفه وظيفياً بأنه: أصغر وحدة صوتية منطوقة ذات قيمة تمييزية[2].

فهو الصامت مع صائته؛ فلا ينطق إلا بهذا الاقتران الواقعي بينهما، و"منطوقة" تخرج الحرف بمعنى الشكل المكتوب، و"القيمة التمييزية" أساس لإعطاء البنية الصرفية دلالتها، كما أن "القيمة التمييزية" تشير إلى شرط كونه فونيماً، فإذا بُدّل ولم تفقد الكلمة دلالتها، صار آلفوناً، أي نظيراً منطوقاً، يشكل مستوىً لهجياً لا يؤدي إلى تغير المعنى والدلالة[3].

أما في قولنا في الفصيحة:

اشتريت صَقْراً: صقر: طائر جارح معروف	لا تغير دلاليا
اشتريت سَقْراً الطائر الجارح المعروف نفسه	
اشتريت زَقْراً الطائر الجارح المعروف نفسه	

إذن (ص) و(ز) الفونان من (س) في الكلمة السابقة. وهنا يجب أن يوضح للمتعلم أن اختيار (س) فونيماً ليس عشوائياً. وإنما على أسس صوتية يسعفنا بها

---

١. انظر: ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة: د.أحمد مختار عمر، ط 2، عالم الكتب، القاهرة، 1983م، ص88-92 و: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 195، ومباحث في علم اللغة واللسانيات ص 79، واتجاهات البحث اللساني، ص 238-239، ومبادئ اللسانيات، ص 98-109. ودراسات في اللسانيات التطبيقية، ص39، وشاهين، عبد الصور، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 4، 1404، 1984، ص115-138.

٢. انظر: مبادئ اللسانيات، ص101.

٣. انظر: السابق، ص108، وأسس علم اللغة، ص89.

علم وصف الصوت (phonetex) ذلك أن الحرف البيني، هو (س) فهو الوسيط بين (ص) و (ز) فيفترض أنه الأصل الذي انزاحت عنه بعض اللهجات.

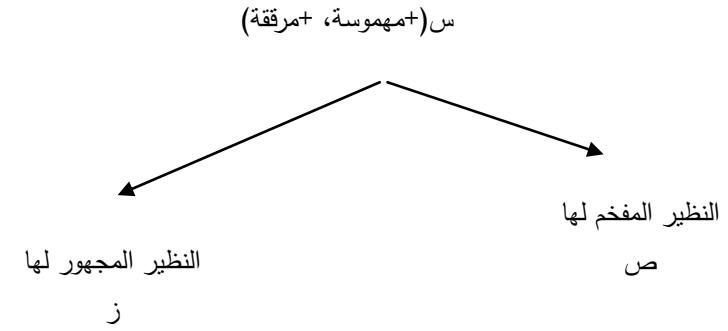

إن جل الإشكالات التي تواجه متعلم العربية سواء على صعيد المقارنة بين الفصحى والفصيحة، وبين الفصيحة والعامية، أو على صعيد مقارنة العامية بالعامية وذلك أن الاختلافات اللهجية في معظمها صوتية، ثم معجمية، أما الاختلافات التركيبية، والصرفية فقليلة.

فمثلا جملة: منذر وثريا يذهبان ليلعبا في الثلج

فصيحة سليمة ولو قدر لبعض العرب المتأثرين باللهجات الكنعانية والسريانية القديمة، التي ظلت ممتدة ودخلت في جسم العربية– أن ينطقوها بالفصيحة لأصبحت عن ألسنتهم : مُنزر وسُريا يزهبان ليلعبا بالسلج.

و لو قالوها بالعامية لأصبحت: منزر وسريا يزهبان ليلعبا بالتلج.

فهنا يميز للطالب أنه في الفصيحة لا تتناوب الذال والزاي، ولا الثاء والسين، ولا الثاء بالسين أو التاء مطلقا إلا في كلمات محدودة في بعض اللهجات العربية القديمة، غير أن العامية تفعل ذلك بتوسع مبالغ فيه وفق قوانين فنولوجية معروفة في الدراسات التاريخية المقارنة، حيث الزاي هي النظير المجهور للذال، والسين

هي النظير المقارب في المخرج من الثاء، فالثاء (بين أسناني) والتاء النظير الوقفي للثاء مع تقارب في المخرج (صفيري+ لثوي) .

إن الانحرافات الصوتية التي طرأت على الألفاظ العربية أسلمت إلى فوضى بينها؛ مما يشكل عاملا محيرا لابن العربية فهو يتشتت بين آلفونات مختلفة تكون أحياناً في المجتمع نفسه، ولا ننسى في المجتمع أو طبقة منه أحياناً تروج لهذه الانحرافات، وتكسر الحروف وتحركها عن مواضعها وخاصة على ألسنة النساء، حتى بات ذاك من مقومات الأنوثة المنشودة، ويلحظ أن الأصوات التي تتبادل في اللهجات العربية مكونة ألفوناً من فونيم محددة وهي:

ث ← ت أو س (مدنية الشام، مصر)

Dsج ← dj ج شامية (مدنية الشام) ← ي(في الخليجية).

ذ ← ز

ذ ← د (مدنية الشام، مصر)

س ← ص (مدنية فلسطين، مصر)

ص ← س (مدنية الشام، مصر)

ض ← ظ (البدو في الوطن العربي)

ض ← مفخمة (ليس لها جذر منطوق في الفصيحة ولا رسم)

ظ ← ض (مدنية الشام، مصر)

ظ ← ز مفخمة (ليس لها جذر منطوق في الفصيحة ولا يرسم)

ر ← ر (مرققة) (مدنية الشام، مصر)

د ← ض (بعض قرى فلسطين)

ض ← د (على ألسنة بعض نساء الشام، مصر (تكلفا)

ط ← ت (على ألسنة بعض نساء الشام، مصر (تكلفا)

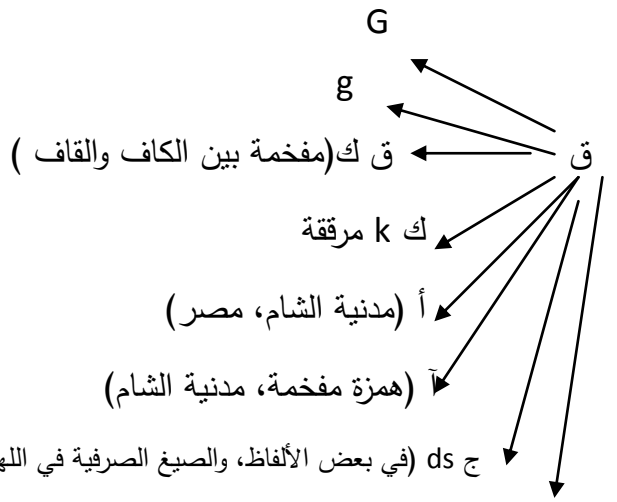

إن هذا الرسم يكشف أن جل التحولات الصوتية في مناطق من بلاد الشام، ومصر، ومن حذا حذوهما في بعض لهجات دول المغرب العربي، أي في مناطق المد الكنعاني والسرياني القديم، حيث المدن الكنعانية العريقة، وهي لهجات الحضر فيها خاصة، وأحسب أن هذا ما جعل اللغويين العرب حسبما ورد في صحيفة أبي نصر الفارابي يعزفون عن الأخذ بلغة القبائل التي جاورت الروم، والفرس، والأنباط والبربر وغيرهم[١].

وينبه الطالب إلى أن شيوع تبدل صوتي في منطقة ما في بلد عربي، أو ببقعة جغرافية ما– لا يعني أن الآلفونات المختلفة لذلك الفونيم غير مستعملة فيه، بل تستعمل وتتعايش حسب البيئة.

---

١. انظر: السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط1، د.ت، ص56.

وغالباً تحافظ اللهجة البدوية والريفية المشتركة بين دول العالم العربي بما فيها بلاد الشام ومصر على معظم أصوات الفصيحة، وتنأى عن التحريف الآلفوني.

وفي ضوء هذا أقترح أن تشاع في كل البلاد العربية من العاميات اللهجة البدوية، ولا أقصد تلك الموغلة في بداوتها، وإنما تلك المشتركة التي يتفاهم بها أهل البادية والريف في بلاد الشام والخليج العربي، وصعيد مصر، وغيرهم، ليس انحيازاً لأحد أو طبقة أو لهجة، ولكن لما هو ثابت من حفاظ تلك اللهجة على معظم أصوات الفصيحة، مع نبذ بعض الانحرافات الصوتية فيها وهي قليلة مثل: إبدال القاف غيناً والضاد ظاء والقاف جيما، وهذه مرحلة أولية اقترحها بالترويج لأقرب اللهجات إلى الفصيحة لإعادة التأهيل الصوتي لأبناء المجتمع؛ مما يضيق الفجوة بين العامية والفصيحة ليسهل بعدها على أبناء العربية تعلم الفصيحة بعد ردم الفجوة الصوتية بينهما. وهذا تخطيط مضاد لما يروج له في الإعلام العربي المأجور الذي يسعى بطرح النموذج الإعلامي والفني والأدبي الذي يعمق الهوة بين العامية والفصيحة، فيعسر الفصيحة أكثر على أبنائها؛ مما يفضي إلى فوضى مربكة لهم.

يجب أن تحل لهجة متوازنة تحيي أصوات الفصيحة بإخراجها من مخارجها الأصيلة، بديلاً عن تلك المولدّة من اللهجة اللبنانية المختلطة بالإنجليزية والفرنسية والتي يروج لها في الإعلام العربي على ألسنة النساء خاصة وبدأت تتسرب في الأردن إلى المذيعين الذكور؛ لتصلح لتمييع اللغة فتمييع المجتمع، والتي نراها تحظى بقبول لدى مذيعات العالم العربي بما فيه الأردن، فقد صار المؤهل الوحيد المطلوب من المذيعة العربية هو تكسير اللغة وتفصيدها لتصلح للخضوع في القول على الهواء، للبشرية جمعاء، فالعربية الفصيحة، وكذلك العامية البدوية لغة

فرسان أشداء أحرار لا تصلح للتمييع والتدليع فالتضييع مقومات ذوبان الأمة العربية في بوتقة العولمة المستعرة التي تصب الناس جميعاً في قالب النموذج الأمريكي، فتضيع هوية خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فثمة سياسة إعلامية موجهة لفرض النموذج الإعلامي واللغوي والاجتماعي والثقافي علينا، إنه نموذج "باربي" و"زوج باربي" هبة العالم المسيطر، للشرق؛ ليستغرب!

إن أحياء أصوات العامية البدوية المشتركة بين الدول العربية نطقاً **لا كتابة** هو مرحلة أولية – كما بينا سابقاً– لتنتقل بالمحاكاة من الإعلام إلى المجتمع، فتحيا الفونيمات الأصيلة للعربية، وعندها سيكون انتقال لسان الفرد إلى الفصحى هيناً، لأن أصوات العربية لن تكون متكلفة بعيدة عن الاستعمال اليومي، إنها مرحلة لإعادة تأهيل أبناء عربية صوتياً بإحياء أصواتها وظيفيا.

ومن الأمثلة على فوضى الفونيمات بين **الفصيحة والعامية:**

عبث (لا جدوى) ← عَبَس ((في المدنية الشامية والمصرية) حيث س آلفون في العامية الشامية والمصرية، غير أنها بالـ"س" في الفصيحة لها دلالة أخرى هي (كشر، قطّب حاجبيه)، فالسين فونيم مستقل، إن اللفظة "عبس" تستعمل في العامية نفسها بالنطق نفسه لتدل على (كشر– الفصيحة)، فهي تستعمل النطق نفسه للدلالة على المعنيين.

ومن أمثلة هذه الفوضى بين الفصيحة والعامية :

بالفصيحة	تحريفها آلفونياً في العامية، ودلالتها الملبسة بالفونيم المقابل
قلم	ألم (مرض)، كلم (جرح)
سوق	سوء (شر)

وهذه فوضى تسلم المتعلم إلى حيرة، تكرس فكرة صعوبة العربية، وكأنها ميتة، ولا تصلح لأن تكون لغة للعلم والحياة؛ لما فيها من لبس وتعدد فوضوي صوتي يفضي إلى فوضوية بين المنطوق والمكتوب، تفضي أيضاً إلى لبس في الدلالة.

إن متعلم الفصيحة العربي كالأعجمي يعاني حين يحاول ممارسة الفصيحة؛ لأنه يفكر بعامية بعيدة عن الفصيحة، بألفاظها وأصواتها، وهو بحاجة لأن يتكلف فونيمات سقطت من لسانه في حياته اليومية لذا تراه يرتجف ويرتعد حين يتكلم الفصيحة أو يكتب بها، وذلك بسبب ثلاث صعوبات أساسية: الأولى: صوتية، والثانية: إعرابية ونحوية، والثالثة: فقر معجمه اللغوي الفصيح.

والأسوأ من ذلك أنه حين يقرأ القرآن تند منه أخطاء يندى لها الجبين.

– أما إذا ظل الإعلام العربي يكرس اللبننة والتمصير ونحوها لغة للحوار والحديث ونشرات الأخبار– كما هي حال بعض الفضائيات– فذاك خطوة أولى باتجاه نسف العربية العامية المقاربة للفصيحة، ثم نسف للفصيحة، يعقبه تحول إلى الكتابة بتلك العامية السريانية المؤنجلة والمفرسنة، وتسربها إلى الكتابة هو كارثة حقيقية سيسلم حتماً إلى إقليمية وتشرذم للأمة، يضاف إلى سلسلة انكساراتها وانتكاساتها السياسية والعسكرية والعلمية، وعندها ستتسرب هذه اللغة إلى الكتب

والمناهج؛ لتصبح لغة الثقافة، بل إن بعض دول العالم العربي تسوق لروايات كتبها بعض أرباع المثقفين لا لشيء إلا لأنها كتبت بالعامية؛ ليحذو الآخرون حذوهم، زعماً بأن ذلك منقبة لا مثلبة، لأن العامية لغة حية، في حين أن الفصيحة– بزعمهم– ميتة، وما هي بالميتة، غير أنهم يسعون إلى إماتتها وقتلها عمداً، وعندها لن يفهم الشامي على الخليجي، ولا المغربي على المشرقي، بل لن يفهم الأردني على الأردني، وسيكون الحل الأولي الكتابة بالحرف اللاتيني، لأنه قادر على تصوير الحركات على السطر، ثم سيكون استغلاق الفهم والإفهام والتفاهم بين العرب على اختلاف أقطارهم، بل وبيئاتهم في الوطن الواحد الصغير، وسيعزل العرب عن تراثهم الفكري الديني والعلمي الضخم الذي يستمدون منه تاريخهم وعقيدتهم وثقافتهم ووجودهم وهويتهم وقوّتهم [1].

وقد بدأ التحول فعلا إلى الكتابة بالحرف اللاتيني مساوقاً للكتابة بالعامية إلى أبناء العربية في لغة التواصل على الشبكة العنكبوتية.

وسيأتي الحل اللساني الأكيد الذي يسعى إليه التوليديون التحويليون، وهو إيجاد لغة عالمية مشتركة، وأحسب أن هذه اللغة ستكون لغة المستعبِد لا المستعبَد، وأحسب أنها الإنجليزية، والمخطط يسير كما تلحظون بدقة وبخطى حثيثة دليله إدخال الإنجليزية في المراحل المبكرة التأسيسية من الدراسة، مع إيجاد

---

١. الدعوة إلى العامية المبتذلة، وإلى الكتابة بالحرف اللاتيني دعوات مغرضة بدأت من مطلع القرن العشرين، ووجدت طريقها إلى النجاح في الفضائيات العربية، وفق مخطط مرسوم: تناولها عدد من الباحثين، انظر مثلاً: عمايرة، محمد أحمد، بحوث في اللغة والتربية، دار وائل، عمان، ط، 2002م، ص 343–355 و: بد الواحد، مصطفى النحاس، مشكلة العامية والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب، صادر عن معهد الخرطوم الدولي للغة العربية سلسلة بحوث الدراسات العليا، مطبعة التمدن، الخرطوم، 1977م، ص 66–84.

النماذج الإعلامية التي ذكرنا؛ لتصبح المؤثر في لاوعي الأجيال منذ الصغر، ودليل آخر: التحول إلى اللهجات التي أشرنا إليها في برامج الأطفال، من لبننة وتمصير وأردنة مولَّدة، إلى غير ذلك؛ لإكسابهم هذا المستوى الغث من اللغة، وإهمال الفصيحة، وإشاعة أن تلك العاميات المبتذلة هي لغة طبقة معينة من الراقين والأغنياء وذوي السلطة؛ لتزينيها وتحسينها في أعينهم وأسماعهم.

وقد كانت تجربة "افتح يا سمسم" ناجحة جدا في إحياء الفصيحة على ألسنة الأطفال، حتى أن اليهود اقتبسوه وسموه "سُمسُم" وترسموا خطاه في تعليم العبرية، وتحول إلى العامية الأردنية المولدة الركيكة لا تجد فيه إلا سخفاً وتفاهة وفهاهة.

وعليه، ينبغي لأهل الفصيحة واللسانيين والإعلاميين والأحرار أن ينتبهوا إلى هذه الكارثة، وأن يخططوا فعلا لتحويل العربية الفصيحة إلى مسموعة للأطفال خاصة في برامجهم جميعها بلا استثناء، في المدرسة والبيت، وغيرها. وأن يرسخ في أذهان الناشئة أن اللغة الراقية هي المقاربة للفصحى؛ بل يجب أن ينبه لأن يكون واعيا في اختيار كلامه، فيختار عن وعي أن يعطي كل صوت حقه حين يتكلم بالعامية، فيسهل عليه أن يتكلم في الموقف الثقافي بالفصيحة، وأن يقرأ الشعر أو القرآن الكريم بلسان عربي مبين دون خطأ أو حبسة أو تلجلج، وأن يتمكن من الرجوع إلى كتب التراث العربي الفكري والعلمي مستقبلاً.

والعجيب أننا في العصر الحديث أمام نموذجين لغويين متعاكسين:

النموذج الأول: أمة مكونة من قبائل وشعوب يجمعها نسب واحد، ولغة واحدة، ودين واحد، وتاريخ واحد، ومصير واحد، ومع ذلك تتشرد وتتفرق وتتنافر، وتبحث عن وسيلة تزيدها تفرقاً فوق تمزيقها الجغرافي والسياسي، بأن تدع اللغة الثقافية التي ذخرت بها إنجازاتها العلمية والثقافية والإنسانية والدينية وغيرها لتضيق

على نفسها مختارة، فيسعى الإعلاميون فيها وأصحاب القرار إلى تفتيت العنصر الأساسي الذي سيؤدي بالضرورة إلى كسر العنصر الديني والتشرذم في لهجات محكية في تعصب مفتعل، فيسعى إلى إماتة لغة حية أكثر من ألفي سنة ومازالت تزهر وتثمر.

-النموذج الثاني: شعوب متفرقة لا يجمعها دم ولا جنس ولا لغة، ولا تاريخ ولا ثقافة، يجمعها فقط دين وبمذاهب متعددة، والأهم يجمعها حلم سياسي، تقرر أن تجتمع، وأن تتخذ لها وطناً، وأن تكون أمة، فأول ما تقرره التخطيط لإحياء اللغة التي كتب بها كتابها المقدس، والادعاء بأنها اللغة القومية، وتفرض على الناس عن طريق اللاوعي في الخطاب الإعلامي، وعن طريق الوعي بفرض تعلم تلك اللغة في معاهد خاصة؛ لكي يكون المهاجر إليها مواطناً فيها، وتفلح فتحيي لغة ميتة منذ أكثر من ألفي سنة إلا قليل منها لدى فئة دينية قليلة، بل تحييها من معجم "لسان العرب"، لأن لسانهم فقط هو الحي واقعاً لغوياً وحضارياً، إنها تجربة اللغة العبرية المعاصرة، فعلى الرغم من أن المجتمع الإسرائيلي في فلسطين يرطن بلغات مختلفة مختلطة إلا أن الإعلام الواعي لا يسمح بظهور أحد من الناس على شاشته يتكلم بغير العبرية، كما أن التدريس في كل مراحله بالعبرية، ذلك أن التماسك الاجتماعي والسياسي في أي أمة من الأمم لا يمكن أن يكون بدون وحدة اللغة وما ذلك إلا إدراكا منهم من استحالة تشكيل هوية جمعية لأمة مختلطة مالم توحد لسانها، الذي من شأنه أن يطبعهم بثقافة واحدة تضمن تماسكهم، إنه إيجاد لما يسمى بالهوية.

فـ"الهوية تكون هوية فرد، كما تكون هوية جماعة. وهوية الفرد تكون هوية بسيطة، تلك التي هي الأقرب إلى الذهن، والأكثر انتشاراً، نعني ما يُعْرَفُ اليوم

بـ"البطاقة الشخصية" التي تتضمن مفردات الاسم والعمر والمواصفات الشكلية والجنسية.. إلخ مما يميزه عن غيره الأفراد، ويعرف الآخرين به. وهوية مركبة، تلك التي تحدد اتجاهه ومسار فكره وعقيدته وانتماءاته، ومثل هذه الهوية هي التي تجمعه بغيره من الذين يشتركون معه في الاتجاه والفكر والعقيدة والانتماءات، وتميزه في الوقت نفسه بتلك الفروق أو التضاريس التي لا يشترك معه فيها غيره.

- ومجموع الهويات الفردية والمركبة يساوي هوية الجماعة (الهوية العليا) التي تجمع أفرادها من ناحية، وتميزهم من ناحية أخرى أيضاً.

إن الهوية العليا – كما أسميناها – تتشكل تلقائيّاً أو عفويّاً دون تدخل مباشر من ...الإنسان، وقد تكون نتيجة لفعل إنساني واعٍ، وربما تخرج عن هذا وذاك، ويكون الفاعل فيها هو "الله" الذي يرسل رسلاً، يدعون إلى أديان تصبح في وقت لاحق "هوية" للمؤمنين بها.

وقد عرض المنظّرون لمسألة الهوية لتلك الحالات، وحصروا العوامل التي تشكل الهويات فيما يلي: الجنس أو الأصل أو العرق، الدين، التاريخ، الجغرافيا (المكان)، التكوين النفسي – الثقافي، الإرادة أو المشيئة، الاقتصاد، بالإضافة .... إلى اللغة. ويمكن أن نزيد: الدولة، وهو عامل فاعل رآه بعض الماركسيين –غير ستالين[1]".

والهوية التي هي كينونة الفرد والجماعة تتشكل نسيجا من خيوط عديدة هي:اللغة والتاريخ، والجغرافيا، والتكوين النفسي والثقافي والاقتصاد والعرق" وكلها متحققة تقريبا لخلق الهوية العربية النموذجية.

– "وقد يحظى خيط ما بدرجة أكبر من القوة، ويطغى على ما عداه، ويكون أفصح حضوراً لدى الجماعة نفسها، وفي عقول الجماعات الأخرى عنهم. ومن هنا

---

١. الحفيان، فيصل، اللغة والهوية، إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات.

نقول: إن "هوية" هذه الجماعة لغوية، أو تاريخية، أو دينية، أو جغرافية.. إلخ، مما يعني أن العنصر الطاغي هو هذا أو ذاك، دون أن يلغي ذلك دور العنصر الآخر، أو العناصر الأخرى بالمرة"[1].

وإذا كانت اللغة هي لسان الهوية السابر لها المعبر عنها، والهوية هي جوهر الإنسان وكينونته، فاللغة هي أهم مكون من مكونات الهوية، وفي حال اللغة العربية تتضاعف أهميتها في تشكيل الهوية حيث الدين عربي اللسان، غير مستورد من ثقافة أخرى، وإذا كان الدين الإسلامي خاصة دين حياة بكل مناحيها، لا دين طقوس تؤدى في زمن معين ومكان معين فحسب، فهو تشريع كامل يشمل الروحانيات، والاقتصاد وينظم العلاقات الاجتماعية ويشكل دستورا سياسيا، ويؤسس للعلوم، ويحمل رسالة عالمية لا قومية فحسب، وعليه فإن اللحمة بين الدين والثقافة والتاريخ واللغة العربية هي أقوى ما يكون وهذا أحد أهم عوامل قوة العربية وامتدادها، كما أن هذا يعني أن اللغة العربية هي الهوية؛ لاحتوائها بقية عناصر الهوية الأخرى، وعليه فإن العربية مستوفية الشروط وانحسارها لا ينبع من خلل فيها بل من عوامل خارجة عنها .

"وهذا يعني أن العلاقة بين الهوية والثقافة الإسلامية يتعذر الفصل بينهما، لأن الهوية هي مرآة لثقافة الأمة، وهي التي تمنحها شخصيتها التي تعرف بها بين الجماعات الأخرى، فالثقافة هي التي تحدد هوية الأمة وشخصيتها، وتدل عليها وتميزها عن غيرها، لأنه لا توجد هوية لا تستند إلي خلفية ثقافية، وكان للإسلام الأثر الفاعل في تشكيل الهوية العربية والوحدة الإسلامية النابعة من اشتراك الناس في ممارسة الطقوس والشعائر والمعاملات والعبادات وهي المرجع الأساسي لمنظومة القيم التي يؤمن بها المجتمع العربي المسلم، ذلك أن القيم قد تشكلت بناء

---

١. السابق نفسه.

على تعاليم الديانة الإسلامية التي كان لها أبعد الأثر في مختلف عناصر الحياة العربية.

إلا أن اللغة العربية، على غرار أوضاع لغات الحضارات الكبرى، يفرز نقاط قوة وضعف، وسواء تعلق الأمر بمتنها وضوابطها وسلامتها، أو تعلق بوظائفها الفعلية أو الكامنة في محيطها الإقليمي والدولي، أو في مجتمع المعرفة والمعلومات والاقتصاد. وهذا يتطلب خطة تأهيلية متجددة ودائمة للغة العربية، وإن إدارة الوضع اللغوي لصالح اللغة العربية ولصالح متكلميها أمر موضوعي وحتمي، وإن التجارب اللغوية عند العرب والمسلمين وعند غيرهم من الشعوب تفرز أهمية القرار الواضح والإرادة الأكيدة وترجمة القرار في الخطط والتشريعات التي تؤول إلي النهوض باللغة"[١].

"وإذا كانت اللغة هي تلك الخصيصة الإنسانية التي تعكس العقل الجمعي لفئة من البشر، وتعبر عن رؤيتهم للعالم من حولهم، وإذا كانت الهوية هي الحقيقة والذات والماهية.. فإنه يمكن القول دون أن يكون ثمة افتعال: إن اللغة تعد صورة حية لحقيقة أصحابها وذاتهم وماهيتهم.

..... واللغة تبدأ هويةً بسيطةً، ثم تَغْنَى وتتعمق مع مرور الزمن، فهي أشبه بالوعاء الذي تثريه الأيام، ذلك أن العلاقات الإنسانية المتشابكة داخل الأسرة اللغوية، والعلاقات مع الأسر الأخرى – والأحداث والآمال والآلام، كل ذلك يصب في اللغة، حتى يصبح الصوت اللغوي مَنْجَماً شعوريّاً واجتماعيّاً يربط بين الناس، ويوثق علاقاتهم، ويحدد ملامحهم، ويوحد نظرتهم إلى أنفسهم، والآخرين، والعالم والكون من حولهم.

---

١. الغامدي، ماجد بن جعفر، الهوية والقيم موت العربية نموذجاً 1–2، صيد الفوائد، ww.saaid.net/Arabic

إن العلاقة بين اللغة وأصحابها علاقة تفاعلية، يصعب معها الفصل بين الطرفين، فهي هم، وهم هي، وبعبارة أخرى هي (اللغة) الهوية، وهي (الهوية) اللغة." [1].

وليس من لغة حملت إرثاً تاريخياً وثقافيا حضارياً ممتداً متصلاً على مدى ألفي سنة كالعربية مما يعطي صورة حقيقية لهوية الفرد والأمة.

اللغة والشخصية

تتعدد مفاهيم الشخصية بين العلم والفلسفة وتضيق دلالتها الاصطلاحية لدى بعضهم وتتسع لدى غيرهم، كل يراها من زاوية تخصصه ونلخصها في[2]:

1- لدى علماء السلوك بزعامة واطسون يرون أن الشخصية هي نتاج للتعود والتربية والتعلم، يقول واطسون: (أعطوني عشرة من أطفال أسوياء التكوين، فسأختار أحدهم جزافا، ثم أدربه فأصنع منه ما أريد، طبيبا أو فنانا أو عالما أو تاجرا أو لصا أو متسولا، وذلك بغض النظر عن ميوله ومواهبه أو سلالة أسلافه). وكما تعتبر أن الإنسان لا تحركه دوافع موجهة نحو غايات بل مثيرات تصدر عنها استجابات. ومن ثمة تكون الشخصية هي مجموعة السلوكيات التي يمكن أن تلاحظ منهجيا دون الرجوع إلى ما يحسه به الفرد من مشاعر أو حالات شعورية.

2- لدى علماء النفس: فرويد Sigmund Freud (التحليل النفسي): ينظر فرويد للشخصية كترابط تفاعلي بين ثلاث منظومات: الأنا العليا (القيم والأخلاق المكتسبة) والأنا السفلى (الغرائز والرغبات) والهو (اللاشعور) وينشأ عن تتناسقها توازنا نفسيا وغلبة إحداها تهديد للاستقرار النفسي.

---

١. اللغة والهوية، إشكاليات المفاهيم وجدل العلاقات.

٢. خيري، صبري محمد خليل، مفهوم الشخصية بين العلم والفلسفة، يوليو 2011/23، BY HARAKAWAHIDA

3- لدى علماء الاجتماع: جوزيف نوتان(Joseph Nuttin): يمثل مفهوم الشخصية بناء نظريا أو نموذجا علميا يبنيه العالم...انطلاقاً من السلوكات الملاحظة والعلاقات المعاينة.

جي روشي (G. Rocher): يرى جي روشي أن الإنسان محتاج بشكل كبير إلى المجتمع لاكتساب صفات لا يمكنه بدونها أن يمارس حياته كإنسان اجتماعي، فهم يركزون على الحانب الحيوي والتفاعلي يين الفرد والمجتمع .

4- لدى الفلاسفة:

1-عد ديكارت إن صفات الجسد هي صفات عرضية وزائلة، ولذلك فهي لا تمثل حقيقة الشخص بل يجب أن نبحث عن الخصي صرة الجوهرية والثابتة والتي تمثل حقيقة الشخص وتميزه عن غيره من الكائنات، وهو التفكير،

2- كانط (E. Kant): بنى تصوره لمفهوم الشخص على أساس الوعي الأخلاقي لا على أساس الوعي المعرفي كما هو الشأن عند ديكارت، فالشخص البشري عند هـهو كائن يتميز عن الكائنات والموجودات الطبيعية بالعقل والإرادة والحرية والكرامة.

3- سارتر Sartre: يرى سارتر، أن الإنسان يصنع ذاته باستمرار وفق ما يختاره لنفسه ووفقا للصورة المستقبلية التي يضعها نصب عينيه"ليس الإنسان شيئا آخر غير ما هو صانع بنفسه".، فالكائن الإنساني هو الكائن الوحيد الذي يسبق وجوده ماهيته، أي أنه يوجد أولا ثم يصنع ماهيته فيما بعد

التعريف المنهجي: نخلص من التعريفات السابقة أن مصطلح شخصيه يدل على معنيين متلازمين:

1- الوحدة (الاشتراك): أي جماع الشخص أي الشخص كله بكل مكوناته الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية.

2- التفرد: ما يميز شخصاً عن آخر.

ونستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى مكونات وحدة الشخصية المتجانسة بين كل الأفراد الذين ينتمون إلى مصدر حضاري واحد، ولا نتجاوزه إلى التفرد بما هو بناء مكتسب على هيكلها الأساسي من مصادر بيولوجية وفسيولوجية وفكرية واقتصادية وروحية ...الخ يقول مورتن برنس (Morton prince) في كتابه عن اللاشعور: (الشخصية هي كل الاستعدادات والنزعات والميول والغرائز والقوى البيولوجية الفطرية والموروثة، وهي كذلك كل الاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة).

الهيكل الحضاري: وللشخصية عدة هياكل أساسية، وبناء مكتسب على هيكلها الأساسي؛ فهناك الهيكل الفسيولوجي، وهناك الذكاء، وهناك الهيكل الحضاري والذي نعرفه بأنه (مجموعة القواعد التي تحدد لكل فرد ما ينبغي أن يكون عليه موقفه واتجاهه وسلوكه في مواجهة غيرهمن الأشياء والظواهر والناس، يكتسبها من انتمائه إلى مجتمع معين)، وهذا الهيكل الحضاري الأساسي لشخصية الإنسان يتحدد بانتمائه إلى مجتمع معين.

وإذا كانت الشخصية هي حصيلة المكتسب من القيم والسلوك والنمط الحضاري والمجتمع والنفس وتفاعلاتها والذكاء وطريقة التفكير إضافة إلى الاستعدادات الفطرية الموروثة، واللغة هي أحد أشكال السلوك ووعاء الفكر وأداة صنع الحضارة ومثبتتها وهي مكتسبة من المجتمع وانعكاس له وهي الكاشفة عن نفس قائلها والسابرة لغوره فهذا يعني أن اللغة بكونها الجمعي والكلام بكونه ميزة فردية انتقائية هي الأساس في بناء شخصية الفرد والجماعة، وهي أوسع من الهوية لأن الذات الفاعلة مادة وروحا متضمنتان فيها.

وهذا يعني أن اللغة العربية ينبغي أن تكون الأساس الذي تبنى عليه شخصية الإنسان العربي المعاصر إذا أردنا حقاً لهذه الأمة أن تعود إلى الصدارة وأن تكون بحق:" خير أمة أخرجت للناس" والعلاقة سببية بين هذا التميز في شخصية الأمة وسلوك الأفراد المرتبط بمعتقد روحي فكري إصلاحي نفسي واجتماعي الذي لخصه رب العزة والجلالة بقوله" تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" المعروف بكل أشكاله وأنماطه في مناحي الحياة والعلوم كافة، والمنكر بكل أشكاله وأنماطه في مناحي الحياة والعلوم كافة، صغيراً كان أو كبيراً، ذاك أن الفرد والمجتمع لا يصلحان ما لم ينبع الإصلاح من ذاته حتى يصبح أساسا ينطلق منه كل فرد وتتبني عليه المؤسسات، فالمسؤولية تكمن في صلاح الذات وإصلاح الآخرين والإصلاح والصلاح يتمثلان في السلوك اللساني والفعلي.

إذن" نستطيع الآن أن نحدد أمرين أساسيين:

1- اللغة تعمل على تحديد شخصية الفرد لكونها نظاما يضطر المرء إلى التعامل به مع ذويه.

2- اللغة ترتبط بجسد المتكلم وانخراطه الذاتي في المجتمع

"ولا يمكن لشخصية الفرد أن تنمو وتتكامل إلا في حال كانت شخصية الجماعة متكاملة وموضوعية. ولما كان تواصل الفرد مع غيره من أفراد الجماعة، وبالتالي بناء شخصية والتعبير عنها، يتمان عبر اللغة أساسا، فإننا نستطيع أن نقول إن اللغة تقوم في بناء الشخصية بوظائف عديدة تؤدي فيها علاقات الدالات بالمدلولات دورا أساسيا. وهذا السياق اللغوي يدخل ولا بد في إطار سياق أكبر يضم أنماط المواقف الثقافية التي تعتمد بدورها على اللغة إن للتعبير عن مضامينها أو للاتصال بالأنماط الثقافية الأخرى. ولا ننسى هنا أن نذكر أن مفهوم الثقافة عندنا يشمل كامل السلوك الاجتماعي فنيا كان أم ثقافيا أم نفسيا.

إن علاقة الإنسان العربي بلغته والعالم الذي يتعامل معه تختلف عن علاقة الإنسان الغربي بلغته والعالم الذي يتعامل معه. فالإنسان العربي يعيش لغته في ذاته ولا يعطي اللغة قيمة الشيء الذي ينسلخ عنه ويوجد في خارجه. فهو عندما يتكلم يمتلك اللغة بالمعنى الجذري لكلمة الامتلاك أي أن ذاته واللغة يصبحان كيانا واحدا لا ثنائية في تركيبه."[١](بسام بركة)

هذا هو الأصل غير أن الشخصية العربية تتعرض منذ قرن ونصف تقريباً إلى تيارات ثقافية عارمة أجنبية عنها، وهي في معظمها لا تثري الثقافة العربية بقدر ما تناقضها تماماً، ولم يعد التأثر عن طريق القراءة بكتاب؛ ولا عن طريق الاستماع بالمذياع بل صار يقدم عن طريق وسائل الإعلام المسموعة المرئية وبطريقة شيقة، تعرض شخصيات غريبة غربية منطقها رأسمالي مادي نفعي، وصارت تلك الشخصيات تدخل في كل بيت وقلب وعقل، تدس السم بالدسم، إن العربي اليوم مصاب بـ"عدوى الشخصية الغربية"وهذا هو مناط الخطر؛ فهو يقلد شخصيات الأفلام الغربية ابتداء بلبسها وتسريحة شعرها وانتهاء بطريقة كلامها ونمط سلوكها من خلال التقليد، وارتكبت بعض الجرائم في العالم العربي تطبيقا حرفيا لفيلم أمريكي.

إن من يمارس التعليم منا يرى بوضوح أن الشخصية الوافدة هي التي تغلب، وأن الشخصية العربية آخذة بالتقهقر والانحسار، ذاك أن الشخصية العربية لا تتواصل مع منابع بنائها الأصيلة، إضافة إلى انتكاسات الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ مما يولد الشعور بالدونية لدى الأفراد فيفقدون إحساسهم بالانتماء الروحي والحضاري واللغوي.

---

١. بركة، بسام، اللغة وخصوصية الشخصية العربية، الثقافة النفسية المتخصصة، العدد (10)
www.arabsynet.com .

ولا سبيل إلى إعادة الأمور إلى نصابها إلا بخطة حقيقية وطنية ودولية تعمل على خلق شخصية عربية أصيلة بكل الوسائل؛ وابتداء من الطفولة المبكرة " وقد أكد فرويد على دور الطفولة وخاصة السنوات الخمس الأولى من حياة الشخصية في تحديد سلوكها اللاحق. فالتجارب والأزمات وكذا العلاقات العاطفية والوجدانية للطفل مع أبويه وإخوته، كل ذلك يترك في نفسيته أثرا لا ينمحي، وحتى عندما يصبح راشدا فإن سلوكياته ومشاعره هي انعكاس ونتيجة لهذه الخبرات الطفولية"[1].

وأحسب أن الحديث النبوي الشريف:" ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" يصب قي هذا ويسبق الدراسات النفسية الحديثة إذ الحديث عن الـ"مولود"لا عن الغلام ولا الصبي ....الخ، والأبوان نواة المجتمع اللصيقة به، وهما أول من يسمع صوتيهما وهما اللذان يرعيانه ولذلك كل ما يقولانه وحتى قبل أن يعي ما يقولان حق وخير ومعتقد راسخ، وإن كان المرء أيضاً ينماز بأن له عقل ويمكن لفرادة تفكيره ووعيه أن يرشداه إلى الحقيقة بعيدا عن العاطفة لكن ذلك أصعب إلا أنه يختار، وهو ما ذهب إليه سارتر، ومن هنا جاء قوله تعالى" بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره"، لكن جل الناس يعتقدون ويمتثلون للقناعات التي تلقوها عن طريق لا وعيهم في الصغر ومن ذلك اللغة وما تتضمنه من أخلاقيات ورؤى وروح أمة.

وأكد رائد المدرسة المثالية الألمانية "هوجو شوشارت" بأن اللغة هي إبداع فردي يعمم بوساطة الجماعة التي تتبناه وتقلده، فتكون بالتالي خاضعة للقوانين النفسية السلوكية والاجتماعية، خاضعة أيضاً لنتائج هذه القوانين على الأفراد الذين يستعملون هذه اللغة فاللغة تتعلق مباشرة بطريقة حياة هؤلاء الأفراد، ومزاجيتهم وثقافتهم وسنهم

---

١. مفهوم الشخصية بين العلم والفلسفة.

وجنسهم ....إلخ ، فاللغة إذن هي حدث أسلوبي "[١]وعلى هذا الأساس ينبغي أن ينظر إليها، فلم تعد كلمة "أسلوب" تعني فن الأديب فقط، بل تعدته لتشمل كامل العنصر اللغوي الخلاق الذي يتعلق بالفرد ويعكس أصالته وفرادته." [٢] ومن هنا جاءت مقولة بيفون:" الأسلوب هو الرجل نفسه".

"إن السياق كما يحدده ياكوبسون هو المضمون الذي يتمثله المرسل إليه، وهذا المضمون يكون إما لفظياً أو قابلاً لأن يصير كذلك. ويستلزم التواصل أيضاً اتصالاً contact أي قناة فيزيقية، وربطاً نفسياً بين أطراف التواصل . فبهذا المعنى نلاحظ أن الأبحاث التي جربت بناء نموذج للغة دون أي علاقة بالمتكلم والمستمع تجمد السنن المفكك للتواصل، وتقترب من اختزال اللغة إلى وهم مدرسي"[٣].

ولعل أدب التزفين الذي عرفه العرب هو من أهم وسائل التربية والتغذية اللغوية فهو الباعث على تشكيل الهوية وبناء الشخصية الأصيلة، وقد أجريت بحثاً أثبت فيه "اهتمام العرب عامة منذ القدم، وبني هاشم خاصة بأدب الأطفال منذ نعومة أظفارهم، فيدرس ظاهرة التزفين وهي الأغنية من الشعر الخفيف تغنى للطفل عند ترقيصه تتضمن قيماً عليا، وأماني تستشرف مستقبله، وتشكل اللغة الأولى التي تختزن في ذاكرته الأولى، تلح عليها وتنطبع فيها؛ لتكوّن كفايته الأولى التي تنغرس فيها المنظومة الخُلقية والاجتماعية، فتكون المرجع في لاوعيه عندما يكبر ويقيس عليها، ويرى نفسه مندفعاً نحو تحقيق ما فيها من مُثُل، آخذاً

---

١. مفهوم الشخصية بين العلم والفلسفة.

٢. عزة آغا، ملك، " الأسلوبية من خلال اللسانية " الفكر العربي المعاصر، العدد 38، آذار 1986م، ص 87.

٣. الغزالي، عبد القادر، "اللسانيات ونظرية التواصل"، رومان ياكبسون نموذجاً، دار الحوا، اللاذقية، ط 1، 2003م، ص38.

بنفسه إلى تمثلها قولاً وفعلاً .....كما تثبت الدراسة التوافق بين ما أُريد للمُزَفَّن أن يكونه فكان "[1].

"إن المرسل إليه هنا اثنان: المُزفَّن الذي يختزن الرسالة في لاوعيه وهو المتلقي الأول، والناقد الذي يحاول تفكيك السنن من خلال وعيه، كونه قارئاً نموذجياً للنص، في محاولة للربط بين المرسل وكونه النفسي من جهة، والمزفَّن وأثر الرسالة في كونه النفسي من جهة أخرى.

إنها مشروع صياغة إنسان، وبناؤه. "إنه أدب ينم عن وعي العرب المبكر بأهمية تنمية الطفل لغوياً ونفسياً وفكرياً واجتماعياً، فالوشيجة قوية بين التفكير واللغة، إنها رسالة تعلي من شأن الأنا لديه، وتنميها، إذ كيف يتخلق الشعور مع الآخر مع المجتمع، ما لم تستو الأنا وتنضج نضجاً سوياً ؟ وهو ما يؤكده جين بياجيه (Jean Piaget) في دراساته في علم نفس الطفل، وعلاقة اللغة بالتفكير منها" (تزفين بني هاشم)" .... نظريته الشهيرة في مرحلة "الأنانية" على ملاحظة كلام الطفل في هذه المرحلة، وهو كلام يتمحور حول "الأنا" ولا يأخذ الطفل فيه بعين الاعتبار وجود الآخر، السامع لكلامه ... ليست اللغة عند بياجيه مجرد دليل على نفس الطفل وعقله، بل إنه يعدها من أهم الوظائف الرمزية التي يتعامل بواسطتها الإنسان مع محيطه المادي والاجتماعي .... فإن اللغة في نظره تساعد في تطور الإدراك عند الطفل ....فإن سلمنا بأن الطفل يواجه في سني حياته

---

١. الكيلاني، إيمان "محمد أمين"، والفجاوي، عمر، (أدب تزفين"ترقيص" بني هاشم أطفالهم في الجاهلية وصدر الإسلام، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، عمادة البحث العلمي، مؤتة، م(5)، ع(1)، محرم 1430هـ/كانون ثاني 2009م، ص41.

الأولى العالم الخارجي ويتفاعل معه، لقلنا إن اللغة تكون مادة معقدة تنبه ذهنه وتغذي فيه روح التطلع وقوة الإدراك"[1].

كان من نتائج البحث:

١ - إن صغر الأطفال لا يعني أن يخاطبوا بألفاظ سخيفة وأغان تافهة خاوية من الدلالة، زعماً بأن عقولهم الصغيرة غير قادرة على تلقي اللغة القوية والمضامين الرفيعة، فإن التجربة التاريخية تؤكد عكس ذلك.

٢ - التزفين مرحلة مهمة توطِّئ لتلقين الطفل وتعليمه الشعر العربي من قصائد طويلة، كما تهيئه لتمثل ما فيها من قيم ومآثر، وتساعده على تذوق الأدب وتنمية ملكة الحفظ"[2].

ولي بحث آخر أجريته لرصد دور التهويدة وهي رسالة لغوية موجهة إلى الطفل في المهد في تشكيل شخصية الفرد سلباً وإيجابا، ثم دورها في تشكيل جيل يحمل الرؤى والقناعات ذاتها، وذلك من خلال دراسة مقارنة بين نموذجين تاريخيين:

"– أما الأول فهو للطفل اليهودي الذي وُجِّه وجهة سياسية خاصة، فكان الحلم الأول الذي لقنه شاعر الصهيونية الأول شاؤول تشيرنخوفسكي من أوديسا بروسيا حيث مسقط رأسه، إلى الطفل اليهودي؛ ليكون صهيونياً، مؤمناً بالصهيونية

---

١. بركة، بسام، "اللغة والفكر بين علم النفس وعلم اللسانية " الفكر العربي المعاصر، العدد 19، 1982م، ص65-66.

٢. الكيلاني، إيمان "محمد أمين"، والفجاوي، عمر، أدب تزفين"ترقيص"بني هاشم أطفالهم في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، م(5)، العدد(1) محرم1430هـ /كانون ثلني2009م، ص64

شعاراً، راسماً له مستقبله، محدداً له وجهته السياسية، واعداً إياه بإقامة وطن على السهل الساحلي وبالأردن خاصةً، مبيناً له طريق تحويل هذا الحلم إلى حقيقة واقعة، فكان له ما أراد بعد حوالي إحدى وخمسين سنة من تاريخ هذه القصيدة، حقق الأطفال الصهاينة – حين صاروا رجالاً– حلمه على الرغم من بعد الزمان والمكان .

– وأما الثاني فمن الشعر العربي، من أدب يعرف عند أجدادنا بالتزفين أو الترقيص، يُحَمِّلُه المُزفِّن آماله وأحلامه في الوليد، وما يتمناه له في المستقبل، مما توحيه له فراسته فيه.

إنه حلم امرأة من حرائر قريش وجهت وليدها منذ نعومة أظفاره لا ليسود قومه فحسب، بل ليسود العرب جميعاً، إنها هند بنت عتبة التي لقنته هذا الحلم وهي ترقصه، فزرعت فيه قيم الرجولة والبطولة من منظور قبلي عربي أصيل، تلك القيم التي من شأنها أن تؤدي إلى تحقيق الهدف المنشود بتهويدة للمجد، وقد تحقق ما أرادت، فصار ملكاً للعرب.

وعليه فإنَّ هذا البحث يبحث في المضمون الشعري، ودور الأدب الملتزم في التأثير في لاوعي الفرد، أو في اللاوعي الجمعي من خلال المقارنة بين النموذجين موضع الدرس [1]".

"والتهويدة هي شكل من أشكال اللعب الذي يهدف إلى تنمية شخصية الطفل. واللعب في مرحلة الطفولة المبكرة من أهم مجالات التعلم والنمو باعتباره مدخلاً

---

١. الكيلاني، إيمان"محمد أمين"، التهويدة بين شاؤول تشيرنخوفسكي، وهند بنت عتبة، دراسة مقارنة في المضمون الشعري وأثره، "دراسات"، عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، م(36)، ع(ملحق) كانون الأول 2009م، محرم 1430هـ، ص868.

لنشاط الطفل في هذه المرحلة، كما أن اللعب ينمي القدرات الإبداعية لديه." [١] "ففيها تبدأ حاجات الطفل، وحالاته النفسية، ونزعاته الانفعالية، وعلاقاته الاجتماعية بالحيوية والتطبع، وفي هذه المرحلة يتكون نموه اللغوي ومحصوله اللفظي، وتتكون منظومته اللغوية النامية بصورة سليقية فطرية، وبجهد ذاتي داخلي مع التأثر الشديد بما يحيط به من حديث البالغين ولغتهم [٢]".

و قد توصل فرانك وتريزا كارلان إلى أن اللعب يساعد الطفل على النمو السليم في سنواته الأولى، وينمي قدراته في ظل ثقافة مجتمعه؛ لما يشتمل عليه اللعب من الإثارة والتحصيل، فهو نشاط سعيد يبدأ بالمتعة وينتهي بالحكمة، كما يقدم أساساً ممتازاً لتنمية لغته، وإثراء مفرداته كما يساعده على بناء علاقاته المتبادلة مع الآخرين [٣].

فـ"هي الترتيلة الأولى التي تمتلئ بها كفايته، وقد تبقى في ذهنه، بعبقها وقيمها وسحرها، حية تلح عليه الى أن تجده يغنيها هو أيضاً لطفله، وربما ينساها، ولكنها تبقى موجودة في لاوعيه ينطلق من قيمها التي تصبح جزءاً من تكوينه العميق، وباعثاً سلوكياً له في المستقبل، ولا شك في أن أشدّ أنواع القيم هي تلك التي توجه اللاوعي وتنبعثُ منه، فالإلحاح على اللاوعي بِعرض النمط الذي يراد له أن يكون– أخطرُ وأكثرُ تأثيراً في المتلقي من المباشر الصريح الموجّه للوعي"[٤].

"ومن هنا انصب جل الأدب الصهيوني على فكرة الشعب الواحد، والبحث عن لغة واحدة لجماعات من سلالات بشرية متنوعة الألوان والبيئات الثقافية،

---

١. انظر: أحمد عبد القادر نقرش، عمان، لم يذكر دار النشر، ط1، 2007م، ص34–36 .

٢. نجم الدين علي مردان، سيكولوجية اللعب في مرحلة الطفولة المبكرة الحضانة ورياض الأطفال، مكتبة الفلاح، الكويت والإمارات، ط2، 1425هـ – 2004م ، ص 23.

٣. سيكولوجية اللعب في مرحلة الطفولة المبكرة الحضانة ورياض الأطفال، ص 43.

٤. التهويدة بين شاؤول تشيرنخوفسكي، وهند بنت عتبة، دراسة مقارنة في المضمون الشعري وأثره، ص870.

وعلى رأسها اللغة، فكان لا بد من إيجاد اللغة المشتركة فكانت العبرية باعتبارها لغة التوراة، شعارهم في ذلك " φ ϖ τ π σ α φ ογ τ " , "شعب واحد، لغة واحدة"، فبدأ إحياء العبرية، عبرية التوراة التي بدت واضحة في التهويدة موضع الدرس بمفرداتها وأفكارها ومعتقداتها، وعلى الرغم من صعوبة لغتها، إلا أن الشاعر أرادها أن تكون للطفل الصهيوني أغنية ما قبل النوم؛ ليتشرب بها القيم السياسية والدينية مع اللغة..... ولا شك في أن تشرنخوفسكي كان- عن وعي- يتخذ من شعره أداة لصياغة جيل؛ وتربيته بحيث يحمل فكرة الصهيونية، وهو يرى فيه وسيلة ناجعة لتوجيه الفرد فالمجتمع، فهو الذي يقول" [1] : الإنسان نتاج تربته الأصلية[2].

وإليكم : **تهويدةُ مَهْدٍ**[3]

ɔοηρπμ οσɔοηκκμ υαψβ	انْتَشَرَتِ الظّلالُ، صَمَتَتِ الطُّيورُ،
ηφρπτɔηβχɔ ϖνυβ	فَهَجْعَةً، يا بُنَيّ، يا فَرْخي!
ρυδ, κπτ–/η ккμν κτ	لاَ تَسْكُن أَعْماقَ الدَّيْجورِ،
/ηφυβτ ιϖ λ,τ	فَمَعكَ هأنَذَا...
οηβββρ ηπβφɔφρζν ρυτη	سَوفَ يُضيءُ الشَّرْقُ، وَالّطُيوُرُ المُغّرِدَةُ
ɔυβββρηυ υπμπμη	سَوْفَ تُسَقْسِقُ وتَصْدَحُ بِالغِناءِ..

---

١. السابق نفسه، ص871.

٢. انظر: جودت السعد، الرموز العنصرية في الأدب الصهيوني، دار الجاحظ، عمان، 2000م، ص 3 .

٣. أشعار تشيرنخوفسكي، تل أبيب، د.ط، د.ت.

οενυəρφα ρυφη سَيَنْبَلِجُ ٱلفَجْرُ، وَمِنَ الشَّرقِ..

/υβανα οδ κγη سّوْفَ تَعْلو أيضاً شَمسُنا!!!

τυϖ ϖζ λτəηβχəλβϖ ηρχγ إنّكَ عِبرِيٌّ، يا بُنَيَّ، ولكنَّ هذا

əλβυξτ οδ λρατ سَعْدُكَ، وَهذا أيْضاً شَقاؤُكَ..

əοηνυσεϖ ογ γζδ ρψφ غُصنُ جِذعٍ مِنَ الشّعُوبِ القَديمَةِ أنتَ،

/λβυτδ οηνγϖ κγ عَلى الأُمَمِ مَفْخَرَتُكَ..

γσ,ə κσδ,ə ργβ λσυγ ما زِلتَ غَضباً، سوف تكبُر وَتَعرفُ

əκγπ λνγ ,υκυσδ أَمجاداً فَعَلَها شَعْبُكَ....

κγπη ,υρυμβ ϖβηχ, ζτ حِينَئِذٍ سَتَفْهَمُ أسراراً سَيَفْعَلُها،

/κγη υβανα ,γ حِينَ تعلو شَمْسُنا!!!

οηρζφτ ση–ϖηϖ, ρχδ ستصير بطلاً وَأيْدي ٱلقُساةِ...

əηφυρπτəλχ ϖηϖ, سَتَمتّدُ إليكَ، يا فَرخي...

əϖψεαəϖνυβ γσ, τκ σγ وَحَتّى لا تَعْرِفَ الهَجْعَةُ طريقها إليك، لكن اهدأ

/ηφυβτ ηφ λ,τ فأنا معك من أجل هذا مَعَكَ!

نَم، بُنّيَّ، فالْيَومُ قَدِ انْقَضَى،	ɜϖβπ ηϕ ουηϖɜηβχɜϖνυβ
وَالظَّلامُ قَدْ لَفَّنا...	/υβηρψγη λαφ
لا تَسْكُن أعماقَ الَّيجورِ:	ɜρυδ, κπτ– ηκκμν κτ
فَسَوفَ تَعْلو أيضاً شَمْسُنا.	/υβανα οδ κγη
سَتكون مشرداً في كل الدنيا،	κχ,– τκνχ ϖηϖ, σσυβ
لكنّ وطنكَ واحدْ.....	ɜ,φτ λ,σκυνɜλτ
هذهِ لا تَنْسَها: شِعَارُكَ "صُهْيون"	¯φϕα, κτ ,τζ ¯ιυημ –¯λξβ
حتى تَرِدَ قبرك	/,φα λ,σρ σγ
وأيضاً، إن يَتَأَخّر يَوْم الخلاص	ɜϖκυτδϖ ουη ρφτη οδ οτ
فإنه يسيرُ خطوةً خطوةً.	ɜκγα–κγα σγμη
فلا تيأس، أيُّها المُفَعمُ بالأملِ:	¯ϖχε,–ρηξτɜατυ, κτ
فَما زالت شمْسُنا تعلو.	/κγη υβαα συγ
على الأردنِّ وفي السهل الساحلي،	ɜιυραυ ισρηϖ κγ
هناك عربٌ يُخِّيمون	ɜοηβυφ οηηχργ οα

!ϖηϖ, .ρτϖ ,τζ υβκ	لنا هذهِ الأرضُ سَتكون
!οηηβυχχ ϖ,τ οδ	وستكون أنت أيضاً من البناة
ɜκδσ–ηταιβ υνυεη ουηχυ	ويوم يهبُّ حاملوا الراية،
κγν ϖκγν, κτ	لا تختلسها اختلاساً:
–οηρυχδχ λβζ–ηκφ κτ	إلى أسلحتك ببطولةٍ
!κγη υβανα ηφ	لأن شمسنا ستعلو!!

إن منطق القوة الذي ترسخه القصيدة والاستيلاء على بلاد الآخرين والإيمان بتميزهم عن غيرهم والانتماء إلى صهيون والماسونية، والنظر إلى قتل الآخرين على أنه بطولة وغيرها من المبادئ، ونحوها من الأفكار التي ظهرت فيها "صارت موروثاً في التفكير الجمعي اليهودي، لم تؤثر فقط في الجيل الذي تتلمذ على تشيرنخوفسكي ورفاقه، بل مازالت تؤثر على كتاب اليهود وشعرائهم، ومازالت مغروسة في أطفالهم بعد تشيرنخوفسكي إلى يومنا هذا، أي بعد مائة سنة، ففي دراسة أجراها البروفسور أدير كوهين اطلعت على ألف وسبعمئة كتاب للأطفال صدرت في إسرائيل في أعقاب حرب حزيران 1967 م وجد الباحث من بينها 520 كتاباً تضمنت إشارة إلى شخصية العربي"[1].

كما استطلع رأي 250 تلميذاً من الصف الرابع والخامس والسادس في مدرسة الكرمل بحيفا، طلب منهم خمسة مواضيع منها صورة العربي ووصفه لديهم، فكانت نتائج الاستطلاع أن كان العربي متشابهاً في الأسئلة الموجهة إلى التلاميذ، ومتفقاً

---

١. التهويدة بين شاؤول تشيرنخوفسكي، وهند بنت عتبة، دراسة مقارنة في المضمون الشعري وأثره، ص876.

تماماً مع الوصف الذي اعتادت كتب الأطفال على وصفه للعربي، وقال 80% من التلاميذ أن العربي شخص يعيش في الصحراء، يضع الكوفية ويرعى الأغنام، وله وجه مخيف وقذر، وله ندوب في وجهه، وما شابه ذلك[١].

"وقد تطرق 58% من الأولاد إلى كتب الأطفال على أنها أثرت عليهم في رسم صورة الإنسان العربي، ونجح 32%في أن يتذكروا اسم كتاب تضمن شخصيات عربية ووصفاً لتلك الشخصيات، ومعظم التلاميذ الذين تطرقوا إلى تأثير كتب الأطفال ذكروا الشخصيات السلبية، والأحداث السلبية فقط "[٢].

"إن استخدام العبارات المهينة قد تردد كثيراً في كتب الأطفال الإسرائيلية، ومن بين هذه العبارات إطلاق أوصاف الحيوانات على العرب، أمثال: ثعبان، أفعى، ثعلب، ذئب، مفترس، حمار... لقد وضع مؤلفو كتب الأطفال في إسرائيل عبارات في أفواه أبطال قصصهم تنم عن الحقد والكراهية نحو العرب، كما وضعوا عبارات في أفواههم تنم عن الاستخفاف والاستهزاء بالعرب... لقد تحدثت قصص الأطفال الإسرائيلية عن العرب ووصفتهم بالبدائيين الذين يؤمنون بالخرافات والشياطين والأرواح، ويرتعدون خوفاً من أرواح الأموات"[٣].

ومما كتبه أطفال اليهود في وصف العربي تأثراً بالأدب العبري الموجه" قال (ي .ع): وجهه غريب، صغير، مثير للغضب، ذو شعر أخضر، من بلاد ليست بلادنا، سيء، يعلمنا اللغة، غبي، لطيف قليلاً، غير عاقل. ومن الملاحظ هنا وجود عبارة ذو شعر أخضر وهي تدل على البعد الهائل، وانعدام الالتقاء والجهل، وكأن عباراته

---

١. انظر: كوهين، أدير، وجه قبيح في المرآة، انعكاس النزاع العربي اليهودي على الأدب العبري للأطفال، ط1، ص 12-14.

٢. السابق، ص 16.

٣. انظر :كوهين، أدير، وجه قبيح في المرآة، انعكاس النزاع العربي اليهودي على الأدب العبري للأطفال، ط 1، ص 79-82.

مقتبسة من أدب العلوم الخيالية" الذي يصف مخلوقات غريبة عنا، ولكونها مختلفة عنا وغير معروفة لدينا"[١].

"وقال ولدٌ رفض توقيع اسمه: "يجب أن نقتل العرب ونضعهم فوق كرسي كهربائي، وأن نشنقهم ونطردهم، أنا كهانا".[٢]

"هذا بعض من ثمرة الثقافة الخبيثة الموجهة ما زالت تؤتي أكلها كل حين حقداً وشراً"[٣].

"إن أداء الطفل عندما يكبر سيكون رهيناً بكفايته الأولى، وثقافته الأولى، فإن كانت التهويدة سخيفة خرافية نشأ وكبرُ سخيفاً، وإن كانت تتضمن قيماً عليا نشأ واعياً، وإن تضمنت قيماً مسمومة، نشأ ذا رسالة مسمومة"[٤].

ولعلكم تذكرون التهويدة التي كانت تتردد في بلاد الشام:"يالله ينام يالله ينام ولأذبح له طير الحمام رح يا حمام لا تصدق أضحك على فلان لينام".

"ففي الوقت الذي نغني فيه لطفلنا في مهده عن طير الحمام، وريش النعام، ثم نصرِّحُ بعد ذلك أننا نكذب عليه لينام، مستخفين بعقله، زارعين في لاوعيه وذاكرته الأولى الأحلام الكاذبة التي تداعب المعدة لا الوجدان، هذه التهويدة التي من شأنها أن تدعو إلى نوم عميق، وطير موعود ليؤكل، كانت تهويدة جيل النكسات المتعاقبة، جيل النوم في أعماق الديجور، في حين كان فرخ تشيرنخوفسكي يُربى؛ ليصبح جارحاً يقظاً. وبالمقابل نرى هنداً قبل ألف وخمسمائة عام تهدهد وليدها وهي ترقصه بتهويدة الماجدين، بل تعويذة الماجدين[٥]:

---

١. السابق: ص 17.

٢. السابق، ص 18.

٣. التهويدة بين شاؤول تشيرنخوفسكي، وهند بنت عتبة، دراسة مقارنة في المضمون الشعري وأثره، ص876.

٤. السابق نفسه، ص869.

٥. الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1420– 1998م، الجزء 8، ص 118.

إنّ بُنيَّ مُعَرِقٌ كريم محببٌ في أهله حليمٌ
ليس بفحاش ولا لئيم ولا بِطُخرورٍ ولا شؤوم
صخرُ بني فهرٍ به زعيمٌ لا يُخلِفُ الظن ولا يَخيم

إن هذه التهويدة من الأدب الموجَّه المُوَجِّه الذي من شأنه أن يزرع قيماً خاصة، وشخصية خاصة كما أرادتها الأم الحرة لوليدها، وهي تنطلق من قيم المروءة العربية القبلية، فهي تعزز في الطفل منذ نعومة أظفاره التميز، ولكن دون أن تحول هذا التميز إلى تمييز عنصري ضد الآخرين، وتعلمهم قيم الفروسية والبطولة، ولكن ليس ضد أحد أو جنس أو قوم، تعلمه فضائل الأخلاق والزعامة دون أن تزرع فيه الحقد على غيره.

إن مثل هذا الأدب الإيجابي إنما ينصب على صناعة الطفل نفسه، وتزويده بأدوات التفوق دون تزوير أو تلفيق أو كذب، وأول هذه القيم التي تزودها أم قررت أن يكون ابنها سيداً لا لقومه فحسب، كما كانت النبوءة والفراسة، بل لغير قومه أيضاً – صفة العراقة في الأصل، فهو امتداد لذلك الأب الحر الذي اختارته، وهو امتداد لها هي الأم الحرة التي تأبى الدنيّة، ولا ترضى لولدها كما لم ترض لأبيه من قبل أن يقعد عن مكرمة أو شرف، فقد روي أن ملك اليمن أهدى" [1] "عشر جزائرَ إلى مكة، وأمر أن ينحرها أعزّ قُرَشي، فَقَدِمَتْ وأبو سفيان عروس بهند بنت عتبة، فقالت له: "أيها الرجل، لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها تفوتك، فقال لها: يا هذه دعي زوجك وما يختاره لنفسه، والله ما نحرها غيري إلا نحرته، فكانت في عُقُها حتى خرج أبو سفيان في اليوم السابع فنحرها"[2].

---

١. التهويدة بين شاؤول تشيرنخوفسكي، وهند بنت عتبة، دراسة مقارنة في المضمون الشعري وأثره، ص878.
٢. الأندلسي، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ت:أحمد أمين، إبراهيم الأبياري، عبد السلام هاروون، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، د.ط. 201/2

وأضرب مثلا من الغث الذي يتردد على أسماع الأطفال من برنامج أردني بجملة من أغنية تأليف المذيعة الموهوبة تقول فيها: قالوا فرفش فرفشنا مع إنا عل الحصيرة" وعلى الرغم من سوء الرسالة اللغوية المصاغة بالكنعانية أكثر من العربية؛ إلا أنها فوق ذلك لا تحمل حتى قيمة إيجابية واحدة؛ تدرب الأطفال من الصغر على قبول الفقر، وعلى تناسي الواقع وعدم التفكير في تحسينه وتعلمه الهروب إلى الاستمتاع بحياة الذل والفقر واستمرائها. والطريف أن المذيعة كانت تتقاضى راتبا عالياً على هذا الإبداع ونحوه من الرسائل اللغوية التي تسلي الأطفال بما يفسد العقول ويقتل الطموح، لا ما يورث الحكمة، فأين هذه الرسالة من قول الفاروق رضي الله عنه: "لو كان الفقر رجلا لقتلته"، إنها رسائل لا تصلح لخلق جيل ذي الرسالة الخالدة "خير أمة أخرجت للناس" و"لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" إن طفلا يؤمر بالصلاة لسبع ويحفظ الفاتحة والمعوذات عقله أكبر بكثير بأن يملأ بهذا السخف.

يقول ابن خلدون:[1]

اعلم أن تعليم الوِلْدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب في رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخًا، وهو أصل لما بعده. لأن السابق الأول إلى القلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه.

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم في اعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات.

ذلك أن "...هناك انعكاسات جانبية من ثقافة المجتمع على ثقافة الأطفال بوصف ثقافة الأطفال ثقافةً فرعيةً تشترك مع ثقافته في المجتمع في عناصر كثيرة، وتوجهاتهما واحدة في إخضاع الفرد إلى سيطرة الوسيلة الثقافية، فتؤثر ثقافة المجتمع تأثيراً مباشراً بالأطفال، وهذا التأثير له انعكاساته وتأثيراته الإيجابية والسلبية في نفوس الأطفال الذين يقعون تحت سيطرته بشكل عفوي"[١].

والطفل يحتاج إلى المجتمع لتكوين شخصيته و" بسبب هذا الاحتياج فإن الفرد يخضع لما يسمى بمسلسل التنشئة الاجتماعية الذي يعرفه بأنه عملية تطورية بواسطتها يقوم الشخص طوال حياته بتعلم واستبطان المعطيات الاجتماعية والثقافية لمحيطه لكي يدمجها في بنية شخصيته حتى يتكيف مع المحيط أو الوسط الذي هو مضطر لأن يعيش فيه. وهكذا يكتسب الفرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية أساليب التفكير والتصرف والإحساس الخاصة بمجتمعه، وهو ما يسهل تكيفه مع باقي الأفراد داخل المجتمع، فيصبح بذلك عضوا مندمجا في الجماعة ويدافع عن نفس القيم السائدة فيها. وهذا ما يضمن وحدة المجتمع ويجنبه التفكك والانقسام. ولا يمكن لعملية الاكتساب أن تكون ناجحة وتؤدي إلى التكيف ما لم يستدمج الفرد كل ما يتلقاه من مجتمعه لكي يصبح جزءا لا يتجزأ من شخصيته، بحيث يعتبر أن الأساليب التي لقنت له وفرضت عليه، أساليب طبيعية وعادية يتبناها هو نفسه وكأنها صادرة عن إرادته الحرة، في حين أنها رسخت لديه عبر التربية والتنشئة الاجتماعيه. "[٢]

وقد بين ابن خلدون طرائق العرب في التعليم ووقرن بينها في ما يصلح أن يكون قاعدة أساسية يقوم عليها التعليم المعاصر، بما ينسجم مع أهدافنا قائلا:"[٣]

---

١. فاضل عباس الكعبي، المداخل التربوية ومرتكزات التجانس المعرفي في ثقافة الأطفال، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، بغداد، ط1، 1999م، ص 114.

٢. مفهوم الشخصية بين العلم والفلسفة

٣. ابن خلدون الفصل السادس27، ص 285-286

وأما أهل الأندلس، فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترْسيل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبى.

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدا، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس. قال :"لأن الشعر ديوان العرب. ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم تنتقل منه إلى الحساب، فتمرن فيه حتى ترى القوانين. ثم تنتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة". ثم قال : "ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الطفل بكتاب الله في أول أمره، يقرأ ما لم يفهم، وينصب في أمر غيره أهم عليه منه". قال: "ثم ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه". ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان، إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الذهن والنشاط.

هذا ما أشار إليه القاضي أبوبكر رحمه الله. وهو لعمري مذهب حسن. إلا أن العوائد لا تساعد عليه، وهي أملك بالأحوال. ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم القرآن إيثار التبرك والثواب، وخشية ما يعترض الولد في جنون الصبى من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن. لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة. فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن له لئلا يذهب خلوًا منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب

العلم وقبول التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق.

ولكن الله يحكم ما يشاء، لا معقب لحكمه.

إننا مدينون بما نؤمن به من قيم لثقافتنا الأولى التي تلقيناها أطفالاً سمعاً من بيئتنا، ثم لثقافتنا التي تلقيناها عن طريق البصر بقراءة كتاب، ثم انبنت شخصيتنا الفردية نتاج التفاعل بين ما تلقيناه من البيئة الاجتماعية قسراً، وما تلقيناه اختياراً قراءة أو استماعاً، فقد تكون هوة أو اختلاف بين ما هو بيئي قسري وبين ما هو اختياري ثقافي، والفرد يتفكر ويتدبر ويقارن ويهديه تفكيره إلى قناعات ومعتقدات يتبناها عن وعي وإدراك، وقد يتناغم ويتواصل ويتكامل ما هو قسري مع ما هو اختياري ثقافي، مما يخلق انسجاما بين الشخصية الفردية والشخصية الاجتماعية؛ مما يعني تشكل مجتمع منسجم متجانس، وهذا ما يركز عليه القرآن في قوله تعالى: " وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وفي هذه الآية ما يشير إلى عالمية الإسلام الذي يؤمن بتعدد الثقافات وتنوعها بتعدد الأجناس والأعراق والقبائل، ويحترم خصوصية عاداتهم ولغاتهم وأصولهم وتركيبتهم الاجتماعية وثقافاتهم ومهاراتهم، ويرى ذاك مبعث إثراء وتنوعا للإنسانية وتكاملا للحضارة، وهو أيضا يقر باختيار الفرد أفضل ما ورث وتعلم من قومه وبيئته، واختياره للمعتقد الديني الذي ينبني على فكرة أساسية هي تقوى الله التي يندرج تحتها كل سلوك قلبي ولساني وفعلي، ليكون ذاك أساس التنافس والتمايز بين الأفراد والجماعات، وهو بهذا يقر العقيدة وما يترتب عليها من سلوكيات أساسا

موحدا ومؤلفا لما يختلف ظاهرا ويتفق جوهرا، إن عالمية الإسلام يقابلها اليوم العولمة التي تسعى إلى إذابة كل شعوب العالم وصهرهم وتسخيرهم ليكونوا خدما لمصالح الغرب الرأسمالي النفعي، وقولبة الأفراد والمجتمعات بالشخصية الغربية التي تقدم على أنها النموذج.

وشتان بين العالمية والعولمة التي تجبر وتنذر، بالإغراء تارة وبالتهديد أخرى، والحرب ثالثة، وفق سياسة العصا والجزرة، وترى في اختلاف الثقافات والقوميات واللغات عداء لها؛ لذا تسعى إلى إلغاء الآخر وطمس وجوده، وإرغامه على ترسم خطاها لتضمن هيمنتها على الكون كله سياسياً واقتصادياً، ولتجهض أي محاولة من الأمم المقهورة للتحرر من التبعية والهزيمة، ذاك أننا على حد تعبيرهم"الكعكة" تصديقا لـ"القصعة" في قوله صلى الله عليه وسلم "تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها".

والعربية الفصيحة اليوم هي السد المنيع الوحيد الذي ينبغي أن يتمترس به العرب وأن يبنوه بأيد لمواجهة خطر العولمة؛ لأنها هي القناة الواصلة بين الماضي العريق والحاضر وبها نرنو إلى المستقبل، وهي ليست الوسيلة فحسب بل هي القيم وهي الدين وهي الهوية[1].

إن شخصية كل منا هي نتاج التفاعل المتشكل بملكة اللغة بما احتوته من الشخصية التاريخية الفردية والجمعية، وأضرب المثل بنفسي بوصفي حالة فقد تعلمت منذ نعومة أظفاري أدبيات أسرتي فعرفت من أمي أن الكذب مهواة وأن الصدق منجاة، وأن الحقيقة دائما مريحة مهما كان ثمنها، وتعلمت من أبي الجرأة

---

١. انظر: الكيلاني، إيمان محمد أمين"، الأقصى، مديرية التوجيه المعنوي، الجيش العربي، عمان، العدد971، الأول من أيار2003م، 85-87.

فلم يقمعني يوما لأنني خالفته، ولم يجبرني على تبني قناعاته، وعلمني أن أقول الحق وألا أخشى في الحق لومة لائم، وعلمني أن افتخر بأني أنثى حرة، كما يفتخر أخي برجولته، وعلمني أنه يعتز باسمي كما أشرف باسمه، فحرصت طوال عمري أن أفعل كل ما من شأنه أن يقدسه، وأن أبتعد عن أدنى شيء يمكن أن يدنسه، وعلمني أن أحب قبيلتي دون أن أحتقر غيري، ...الخ هذا التعليم القسري، ولما بدأت أمسك القلم في سن أربع سنوات وبدأت أكتب بالعربية علمتني أمي أنه حرف مقدس، هو الفرق بين نور العلم وظلام الجهل، أمارسه بيميني المنزهة عن بعض الأعمال، فأحببت الحرف وعشقته ورسمته على أنه إبداع مقدس، وفي الصف الثاني الابتدائي كنت قارئة ممتازة أتردد وأخ لي يكبرني بأربع سنوات إلى مكتبة أمانة العاصمة في وسط عمان، فسحرتني الكتب وألوانها ورائحة حبرها وصرت أقرأ ساعات وساعات، وفي الصف الثالث قرأت روائع من الأدب العالمي كالبؤساء وقصة مدينتين، وفي الصف الرابع قرأت ديوان أبي فراس الذي وقع تحت يدي وهو لأخي في السنة الجامعية الأولى، ولم يعد كتاب اللغة العربية المدرسي من نحو ونصوص كافيا لري شغفي، فقد حفظت كل حكمة فيه، وصرت أسطو على كتب إخوتي الكبار فأحفظ ما فيها من معلقات وحكم، وأنافسهم فيها، وقرأت العقد الفريد في الصف السادس، واستمررت، غير أنني تشكلت وبني جل شخصيتي ومعرفتي التراثية عند السابعة عشرة، فماذا تعلمت من لغتي، وماذا اكتسبت من شخصية أجدادي: تعلمت أن أسمت سمتهم وأن أتواصل معهم فآخذ منهم خير ما فيهم وهو ما خلدته اللغة منهم، وتعلمت بكل كلمة بل حرف من القرآن الكريم حكمة وعلماً ومبدأ خلاصتها أن لا يغيب الله عني لحيظة وان أرقبه في كل صغيرة وكبيرة فحين أحسن لا يهمني إلا أن يراني وحده كذلك، وحين أخطئ لا يهمني أن يعذرني سواه، فبه خروجي من الظلمات إلى النور، هو الفكر

الكامل المنسجم، وغيره أفكار، وتعلمت من ضمن ما تعلمت منه ألا أفرح بالنعمة فقد تزول، وألا أحزن عند البلاء أو عند فوات ما أحسبه نعمة لأن ذلك لا يدوم، فأنظر إلى الآخرة وتنصرف همتي إليها :" لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم" وتعلمت منه تمثيلا لا حصرا: الحكمة، الصدق، الوفاء بالعهد، العدل، الحرية، الطهارة، التقوى، القوة في الحق، الكرامة العزة، التواضع.....الخ، وتعلمنا من حكمته –صلى الله عليه وسلم– ولينه وحزمه وبيانه وحيائه وشجاعته ورفقه ما يجعلنا نصمد في وجه الريح العاتية، ونفديه بالأروح والمهج ميتا كما هو حي.

وأضرب أمثلة من حكمة البشر باللسان العربي المبين، ممالا قال في مثله – صلى الله عليه وسلم:" إن من البيان سحرا" وما السحر فيه سوى أن يدخل قلبك وعقلك ويغير مسيرة حياتك، فتعلمت من أبي فراس الاعتزاز بالذات وبقومي، وأن السيادة عمل جماعي، وأن لا أقبل إلا أن أكون في القمة من قوله:

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

وتعلمت من امرئ القيس أن أبذل جهدي باقصى ما أستطيع وأن أتجشم الصعاب في سبيل الهدف المنشود فإما أن أحققه أو أموت دون ذلك:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقـن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت لـه لاتبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

بيتان كتبتهما ووضعتهما قبالتي على مكتبي وأنا طالبة، وكتبت جنبهما :

ومن لا يحب صعود الجبال يعـش أبد الدهر بين الحفر
كذلك قالت لي الكائنات وحدثني روحها المستتر

إذا ما طمحت إلى غاية لبست المنى وخلعت الحذر

فكنت كلما تعبت من طلب العلم وتبعاته، نظرت إليها فشحنتني بالعزم والعزيمة.

وكتبت جنب تلك الأبيات :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

وأدرك أن:

لولا المشقة ساد الناس كلهمو الجود يفقر والإقدام قتال

وتعلمت من الشريف الرضي أن أسير نحو هدفي السامي وألا أعبأ بما يوجه إليّ من نقد بقوله:

إذا الله لم يعذرك في ما ترومه فما الناس إلا عاذل ومؤنب
ملكت بحلمي فرصة ما استرقها من الدهر مفتول الذراعين أغلب

وتعلمت أن أصرف همي وهمتي إلى جوهر المجد وعرفت قيمه حين كانت تنصرف نفوس أترابي إلى الثياب والزينة والمظهرمن قول أبي العلاء:

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

وتعلمت منه أيضا أن تقدم العمر ينبغي أن ترافقه سيرورة بناء وعلم، وأن الوقوف عند حد من المجد يعني الرجوع إلى الخلف والفشل:

تعد ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنب لي إلا العلى والفواضل
ينافس يومي في أمسي تشرفا وتحسد أسحاري علي الأصائل

وتعلمت من المتنبي أن الأمر حين يتعلق بالشرف، شرف فرد أو أمة يطيب الموت ويحلو؛ لأن الشرف هو الأغلى:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وتعلمت من عنترة أن أهم أخلاق الفارس العفة من قوله:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وتعلمت من الشريف الرضي والمتنبي وأبي فراس الوعي السياسي، وأن رغيف خبزي وعدد أولادي وشخصية زوجي تحكمها السياسة، وتعلمت، وتعلمت، ... ما صاغني وصنعني .

وفي ذاكرتي كما في ذاكرتكم مئات من هذه الرسائل صارت جزءا من تكويننا نسي بعضنا بعضه نصاً، وحفظه قيمة، وحفظ بعضه نصا وقيمة، فهل نحن إلا كلمات ورسائل مختزنة تحركنا وتدفعنا وتسيرنا وتصنع مستقبلنا؟

إن هذه الرسائل ومثيلاتها استبدلت لدى الجيل الجديد برسائل تغريب لغوي ابتداء من الصوتي وانتهاء بالمضمون الغربي المناقض تماما لما ترتكز عليه الشخصية العربية من إيمان بوحدة الخالق والكون، ونبل الهدف من الوجود

والحياة، وهي تصوغ الأفراد من منظور مادي رأسمالي براغماتي لا يؤمن بالروحانيات يهدف في أحسن صوره إلى الثلاثي المقدس عندهم: المال والشهرة والمتع الشهوانية (الغرائز)، وهذه الأهداف مخدومة بتوجيه ممنهج في ما يسعى إليه الغرب واضح في رسائله اللغوية التي يبني بها مجتمعاته، وهو ما يناقض تماما الهدف المنشود لهذه الأمة، وما يتعارض مع مصالحها الدنيوية والأخروية.

فكيف نحمي أجيالنا من التلوث السمعي فالتلوث الفكري؟ وكيف نعيد صياغتهم بما ينسجم مع منظومتنا الفكرية والثقافية والاجتماعية ؟

إن ذلك منوط بخطوات عملية بيناها في البحث تبدأ من الصغر، وتوجه وترعى عن طريق الوعي واللاوعي، ونلخصها في:

أهم نتائج البحث وتوصياته

– إذا كانت اللسانيات هي الطريقة العلمية لدراسة اللغة، فلا بد أن يستفاد منها في التخطيط لتعليم اللغة العربية لأبنائها، ولغيرهم، وإذا كان ثمة من يخطط لدثر العربية الفصيحة فلا بد من التخطيط المضاد.

– اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل وإن كان التواصل أحد وظائفها، إنها المعرفة التي يتم بها التفكير والتحليل وعليها تنبني الحضارة، فلا فكر ولا حضارة بلا لغة.

– يتم إدراك اللغة وتحصيل قواعدها بطريقين: طريق الوعي، أو اللاوعي، والواقع يشير إلى أن المعول عليه غالباً في تعليم العربية هو عن طريق اللاوعي في المراحل المبكرة، ثم عن طريق الوعي من خلال الكتاب المدرسي والأستاذ والإعلام؛ لذا ينبغي الاهتمام بالتعليم عن طريق اللاوعي بدءا، وذلك بتهيئة الأجواء الفصيحة في الموقف التعليمي الثقافي في الإعلام وفي خارج قاعة التدريس، فلا بد أن تكون الفصيحة لغة الاتصال والفهم والإفهام، أي تسويق اللغة العربية كما يسوق لأي عادة أو سلوك.

– يجب تعريب العقل العربي بتعريب سمعه وبصره، وذلك بفرض الفصيحة لغة لعب وعلم وحياة وتفكير من المرحلة الأولى في حياة الفرد.

– يجب استصدار قانون يمنع أي برنامج موجه إلى الأطفال فضلاً عن الكبار يتخذ من غير العربية الفصيحة لسانا للتخاطب.

– يجب إحياء أدب التزفين في حياتنا المعاصرة وتقديمه بشكل معاصر مغنى وإشاعته ليكون الموجه الأول نحو صنع الشخصية العربية الأصيلة.

– ينبغي تقديم النموذج المثالي الفصيح في الإعلام وخاصة من الأطفال النموذجيين؛ ليصبحوا قدوة تحتذى وتقلد فتشيع الفصاحة فيهم.

– ينبغي عند وضع المناهج أن تختار النماذج الرفيعة من الأدب العربي القديم خاصة ذات المضمون الذي يعكس الشخصية العربية الحقة وروح الأمة، كما تنمي المعجم اللغوي للفرد، وتحيي التراكيب الصحيحة غير المولدة.

– يجب إحياء ألفاظ العربية بتشكيل المعجم الفردي وذاك وفق منهج مدروس يقوم على أساس انتخاب ألفاظ مهمة للتواصل مع الثقافة العربية الموروثة وتحديد عددها ونشرها عن طريق سلسلة متصلة مرقمة من القصص الهادفة ابتداء من القصة المسموعة التي تلقى على أسماع الأطفال في سن السنتين، والتدرج بذلك قلا يصل الفرد إلى سن الثالثة عشرة إلا وقد اكتمل معجمه الذي يستطيع به التواصل مع كتب التراث بسهولة. وقد شرعت عمليا بهذا مع فريق من طلابي بالجامعة الهاشمية.

– لكي يمتلك المتعلم اللغة لا بد أن تصبح أداة لفكره، فتحويلها إلى نشاط غير مباشر للتفكير رهين بذلك؛ لذا يجب أن يربى الأطفال ويدربون على التفكير بالفصيحة والتعبير بها، لا على أن يفكر بالعامية ثم يحاول أن يترجمها إلى الفصيحة كما هو واقع اليوم.

– جدير أن يعرف المعلم والمتعلم مفهومي الكفاية والأداء؛ ليكون على وعي بآلية تشكل اللغة، وأن إتقانه لها يكون بقدر تضييقه الفجوة بين معرفته

النظرية باللغة، واستعماله لها نطقاً وكتابة. ويمكن الإفادة من مفهومي اللغة والكلام عند دي سوسير في تزويد المتعلم بالمعجم المفرداتي النفعي المناسب لسنه .

– وفقاً لمفهومي الكفاية والأداء، ولمفهومي اللغة والكلام، ينبغي أن تنتقى القواعد الأساسية التي تصلح لأن تزود المتعلم بأشيعها وأنفعها له في الاستعمال.

– يمكن الإفادة من مفهومي الفونيم، والآلفون، في تفسير كثير من المسائل المشكلة لدى المتعلم، على صعيد اللهجات الفصيحة، وينبغي التخلص من فوضى الفونيمات بإعادة التأهيل الصوتي لأبناء العربية بإشاعة فصيحها وإعادته إلى الحياة.

– ينبغي توظيف علم وظيفة الصوت في تحليل كثير من الظواهر الصرفية، وبعض النحوية وتفسيرها صوتياً، مما ييسر على المتعلم الاقتناع، فالاحتفاظ بقواعد العربية المتعلمة .

– ينبغي أن يركز على تعليم الطفل من سن سنتين إلى السابعة من عمرة بتحفيظه نماذج عليا من الأدب من قرآن وحديث وشعر، وذلك لملء كفايته بتنمية ملكة الحفظ، وأن يبدأ بتعليمه الكتابة في سن سبع سنوات لا قبل ذلك؛ لأن أعصابه وعضلاته وإدراكه لا يساعده على ذلك قبل هذا السن، والثقافة المنطوقة والمحفوظة أجدى له في المرحلة الأولى.

– إن التركيز على تنمية البناء اللغوي في مرحلة مبكرة من العمر يؤدي إلى نمو البناء اللغوي الذي يرافقه بناء معرفي، يرافقهما بناء شخصية قوية متجانسة منسجمة من روح الأمة.

– يمكن الإفادة من بعض الدراسات التركيبية الجادة في رصد أشيع التراكيب، وبطريقة رياضية مبسطة، وكذلك الاستعانة بالجداول الموضحة في تعليم الفصيحة .

– يقترح أن يعلم الطالب من العلل النحوية أوائلها، وألا يعلم الفلسفة النحوية الجدلية، وأن يستغنى عن التقدير والتأويل، إلا عندما يكون ذلك ميسراً وموضحاً لا غنى عنه.

– يمكن الإفادة من الأسلوبية والتداولية في فهم التراكيب التي يجمعها مشترك دلالي في الفهم العام، والفهم الخاص.

– لا بد من الإفادة من نتائج الدراسات اللغوية التربوية التطبيقية الجادة في وضع مناهج التعليم والتخطيط اللغوي عموماً.

– ضرورة الإفادة من مفهوم الحقول الدلالية، وقوانين التطور الدلالي للفظة، للتفريق بين دلالات الألفاظ في سياقاتها المختلفة، معززة بالتطبيق على النماذج الرفيعة.

– إن الأدب بخاصة، والفن عامةً– لا يقف عند حد رسم الواقع كما هو كائن، أو كما يراه الأديب، بل ربما يتجاوز ذلك؛ ليرسم الواقع كما يريد له أن يكون ؛ لذا فإن تعريب الأفلام بالفصيحة، وتمثيل المسلسلات امن حياتنا المعاصرة بها لا بالعاميات، وعرض القصص العالمية الرفيعة بها أيضاً من شأنه أن يبعثها ويهيئ المجتمع لاستعمالها في الحياة من خلال النموذج .

- "ليس صحيحاً ما يدعيه بعض الإعلاميين والتربويين، من المعنيين بلغة الطفل من أن الفصيحة لغة صعبة لا يستوعبها الطفل في مراحل عمره الأولى، بل إن الطفل هو الأقدر على أن يختزن اللغة مهما بدت صعبة؛ ذلك أن قوالبه

الذهنية فارغة وهو يملؤها مما يسمع، فإن صار الفصيح مألوفاً، كان سهلاً، وإن لقن لغة تتسم بالسخافة ألفها، وصارت جزءاً من تكوينه اللغوي والنفسي، ثم السلوكي "[1].

– يجب صياغة نظرية تربوية مستلهمة من التراث العربي تبدأ بتشكيل الشخصية العربية وتوجيهها بما يتوافق والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة ابتداء من خروج الطفل إلى الحياة، بما ينسجم مع كوننا نحمل رسالة عالمية مكلفون بتبليغها.

– ينبغي أن يرسخ في وعي الفرد ولاوعيه أن العربية الفصيحة حية؛ لذا لا حاجة إلى تكريس العامية والتخطيط لإحلالها محلها ثقافياً وعلمياً جرياً وراء الوصفية الغربية .

– ينبغي أن يرسخ في وعي الفرد ولا وعيه أن العربية الفصيحة مقدسة نطقا ورسما مذ نزل بها القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته، وأن التخاطب بها إحياء لسنة محمد – صلى الله عليه وسلم– التي بها يستحق شفاعته.

– يجب السعي إلى استصدار قرارات سياسية ملزمة بتكريس العربية لغة للعلم والحياة والإعلام، وتفعيل هذه القرارات وإلزام المؤسسات العلمية والإعلامية بالتحدث والكتابة بالعربية الفصيحة نطقاً وكتابة، وفرض التعريب على المحال التجارية شرطاً لترخيصها، ومنع الدعايات بغير الفصيحة.

– يجب أن تتوقف الدول العربية عن قبول الرشى التي تقدم لها على أنها منح أو مساعدات من الغرب والتي يترتب عليها التدخل في سياساتنا التعليمية ومناهجنا، مما يعني التبعية وذوبان الشخصية العربية.

---

١. التهويدة بين شاؤول تشيرنخوفسكي، وهند بنت عتبة، دراسة مقارنة في المضمون الشعري وأثره، ص880.

– المجتمع هو المسؤول عن بناء شخصية الفرد وهو الذي يوجهه ويصبغه بصبغته الخاصة في المراحل المبكرة من حياته، والفرد الواعي الذي استوت شخصيته المتفردة قادر أيضا على توجيه مجتمع وتحميله قيما معينة من خلال النموذج الذي يقلد.

– لا يمكن لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها إلا بالوعي بما يجري حولها من أحداث خطيرة، ولا ما سيجري لها مالم تتمكن من تحليل الخطاب وفهم الرسائل اللغوية بأشكالها المتنوعة السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وذاك لا يكون إلا بالوعي اللغوي الذي تنبثق عنه قدرة على تفكيك سنن تلك الرسائل واستقراء ما وراءها من أفكار ومعتقدات وأهداف.

– أقترح أن تشكل خلية تابعة لمجمع اللغة العربية من المتخصصين تعمل على تحليل الخطابات السياسية والثقافية في المشهد واستخلاص نتائجه واستكناه مراميه.

التعليقات والمناقشات

- د. حمدان نصر/ جامعة العلوم الإسلامية

تحدث عن أهمية دور الأسرة في اكتساب اللغة قديماً حيث كانت الراعية في البادية تتحدث الفصيحة ولا تلحن، وحديثاً في زمن التطور العلمي والتقني والتربوي، وارتفاع عدد الأفراد في الأسرة الأردنية والعربية من حملة الشهادات الجامعية العليا إلا أن العربية تراجعت كثيراً على ألسنتهم، ويبقى السؤال قائماً: هل تأثير الأسرة المعاصرة في تشكيل البنية اللغوية عند أطفالنا فعال وحقيقي، خاصة وأن الأسرة سلاح ذو حدين، وهي في العالم المتحضر شريك استراتيجي للعملية التربوية. وتساءل: هل من سبيل لتحسين دور الأسرة الأردنية وجعلها شريكاً في العملية التربوية؟ وقال الدكتور حمدان إن هذا الجانب من أهم جوانب سبل النهوض باللغة العربية.

- رد د. إيمان الكيلاني

فيما يخص ظاهرتي اللحن والعامية رأت أن اللحن ليس بالجديد بل تزخر كتب التراث بأنماط ونماذج للحن وردت على ألسنة العرب، والراعية بالطبع فصيحة بل هي الفصحى، وليس أدل على ذلك من أن اللغة أُخذت عن الجفاة القُصاة المنقطعين في الصحراء. وكما ورد في صحيفة أبي نصر الفارابي: "لم يؤخذ عن القبائل التي جاورت الروم ولا التي جاورت الفرس ولا الهند؛ فلم يؤخذ عن مصر ولا عُمان ولا الخليج العربي ولا بلاد الشام ولا جنوب الجزيرة العربية، وإنما عن قبائل الحجاز ونجد"؛ فظاهرتا اللحن والعامية موجودتان منذ القدم وإنما بدأت

تظهر تطوراتهما في هذا الزمان لأنهما تسللتا إلى لغة الخطاب الثقافي ولغة الكتابة.

وفيما يخص إمكانية وضع خطوات عملية لإعادة الألق إلى العربية قالت: يمكننا ذلك بإقناع خريجي العربية بإحياء الفصيحة على ألسنتهم وفي حياتهم، فنكون بذلك قد أوجدنا نواة حقيقية لجعل تداول العربية عادة شعبية في المجتمع.

وحملت على المغرضين الذين ينادون بالعامية في الإعلام؛ لأنهم يدركون أكثر مما ندرك أهمية فئة الأطفال، التي لا نهتم بتعليمها الفصيحة إلا في المدرسة وكأن تعلم العربية منوط بالمدرسة، ويكون وقتها قد تأخر كثيراً في تعلمها؛ فالأطفال حقيقة مهمشون.